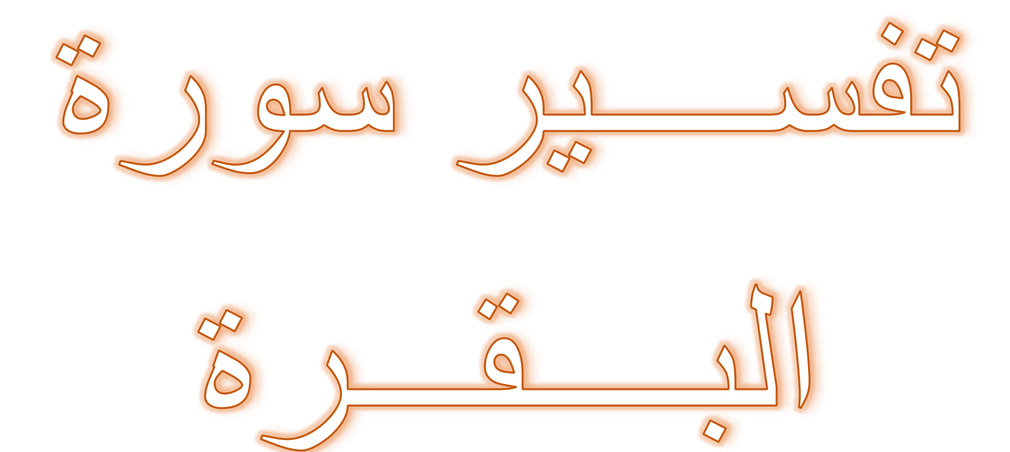

تفسير سورة البقرة

۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ 92)

{ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ } أى: بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، ولكنكم { ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ } أى: من بعد ذهابه لميقات ربه { وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } لعبادتكم غير الله تعالى.

ثم كذبهم القرآن الكريم - فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم - بصورة أخرى سوى ما سبقها فقال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ } وقلنا لكم: { خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم - من التوراة - بِقُوَّةٍ } أى بجد حزم { وَٱسْمَعُواْ } ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة. ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم: { سَمِعْنَا } قولك { وَعَصَيْنَا } أمرك. وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، وإذا فبئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها.

وقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزل الله على موسى وهو التوراة.

والمقصود { بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } القرآن الكريم. ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم للعلم به أو للتنبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب، يكفى فيه العلم بأنه منزل من عند الله - تعالى - ومتى استقر فى النفس أن القرآن الكريم من عند الله، استتبع ذلك استحضار أنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

وقولهم: { بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } معناه: نؤمن بالتوراة التى أنزلها الله على نبينا موسى دون غيرها مما أنزله الله عليك - يا محمد -، وجوابهم هذا يدل على غبائهم وعنادهم. لأن الداعى لهم إلى الإيمان، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله وهو ما أنزل عليهم، فلم يكن إيمانهم مطابقاً لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافراً بجميعها

وقوله تعالى: { وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ } قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لمحوا بذلك فى قولهم: { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } والضمير فى { وَرَآءَهُ } يعود على {بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } المكنى به عن التوراة، أى: قالوا نؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما بعدها وهو القرآن الكريم.

قال ابن جرير - رحمه الله -: " وتأويل وراء فى هذا الموضع: سوى، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن ما وراء هذا الكلام الحسن شيء. يراد به: ليس من عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله تعالى: { وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ } أى بما سوى التوراة، وبما بعده من كتب الله التى أنزلها على رسله ".

والضمير " هو " فى قوله تعالى: { وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ } يعود إلى القرآن الكريم المكنى عنه بقوله " بما وراءه ". والحق: الحكم المطابق للواقع. ووصف به القرآن الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع.

ومعنى كون القرآن مصدقاً لما مع اليهود وهو التوراة، أنه يدل على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم. وبهذا كان مؤيداً للتوراة التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم وذكرت له نعوتاً لا تنطبق إلا عليه، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين فى دعواهم، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى بشرت به توراتهم وأمرتهم بالأيمان به وأيدها القرآن الكريم فى ذلك.

قال صاحب الكشاف: وفى قوله تعالى: { وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ } رد لمقالتهم { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } لأنهم إذ كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ".

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم ويبطل دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامى فقال تعالى: { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ }.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا. { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } قل لهم: إن كنتم حقاً مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلأى شيء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم.

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم ولا بغيره وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء، ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل، فتقول له: إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: { فَلِمَ تَقْتُلُونَ } واقعة فى جواب محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى -.

والإتيان بالمضارع فى قوله - تعالى -: { تَقْتُلُونَ } مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقرينة قوله تعالى: { مِن قَبْلُ } لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة، وللتنبيه على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم المرة تلو الأخرى، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف، فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الله - تعالى - عصمه منهم، ونجاه من مكرهم.

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: { أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ } للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.

ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنايات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون. ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل، فقال تعالى: { وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }.

البينات: جمع بينة وهى الآيات والمعجزات الدالة على صدقه وحقية نبوته، كانقلاب العصا ثعباناً، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر... إلخ.

وإنما سماها الله بينات، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له دلت على صدق موسى - عليه السلام - فى نبوته ورسالته.

والمعنى: ولقد جاءكم - يا بنى إسرائيل - نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، وحقية نبوته، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم العجل إلهاً من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات، التى استبان بها صدقه فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذى لا يملك ضراً ولا نفعاً.

فالآية الكريمة فيها أبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً بنبيهم الذى جاءهم بالبينات، لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

ثم ذكر القرآن الكريم جناية أخرى تكذبهم فى دعواهم: أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم - وهى إباؤهم التوراة عناداً واستكباراً فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (93)

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا - يا بنى إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما فى التوراة، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا فوقكم الطور لنريكم آية من آياتنا العظمى التى تقوى قلوبكم، وتجعلكم تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد وحزم، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة، ولكنكم - يا بنى إسرائيل - يا من تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة وقلتم لنبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم فى التوراة من الهدى والنور وبما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهى رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم أنه واقع بكم فكفرتم بذلك كله ولا زالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل ولقد سرتم على منهج أسلافكم فى العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم؟

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم على تخرصاتهم فقال تعالى: { قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ.}

وقوله تعالى: { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ } معناه: أننا حركناه ونقلناه معلقاً فوقكم فى الهواء، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل.

ومعنى قوله تعالى: { خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ }: قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به فى التوراة بجد واجتهاد فى تأديته، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم. فقوله تعالى { وَٱسْمَعُواْ } ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط، بل المقصود منه السماع الذى يصحبه التدبر والاستجابة للأمر: فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى: { خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ }.

ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال: { قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا }.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا: وليكن سماعكم تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة.

وقد اختلف المفسرون هل صدر متهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازاً؟

قال الفخر الرازى: الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة. وقال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى

{ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ }

قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز.

وقوله تعالى: { وَأُشْرِبُواْ فى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } عطف على قولهم سمعنا وعصينا والإشراب؛ السقى وجعل الشيء شارباً، واستعمل على وجه التجوز فى خلط لون بأخر كأن أحد اللونين سقى الآخر، يقال: بياض مشرب بحمرة أى مختلط، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبه.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: { وَأُشْرِبُواْ في قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ } فى وجه هذه الاستعارة وجهان: الأول: معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله فى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله:

{ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً }

الثانى: كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال.

وفى الجملة الكريمة { وَأُشْرِبُواْ فى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } مضاف محذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى استقر فى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد. وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى لكأنهم أشروبوا ذاته.

والتعبير بقوله: { أُشْرِبُواْ } يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذى لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه.

وقوله تعالى: { بِكُفْرِهِمْ } دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق، وجحود متأصل فكفرهم الذى ترتب على عبادتهم للعجل، قد سبقه كفر آخر، فهو كفر على كفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه فى ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى:

{ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } أى: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بئس الشيء الذى يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين - كما زعمتم - بالتوراة، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشيء من ذلك فلما أنتم بمؤمنين بها ولا بغيرها من كتب الله، لأنها لا تأمر بالفحشاء.

فالجملة الكريمة خلاصة لإبطال قولهم { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } بعد أن أبطله الله - تعالى - فيما سبق بشواهد متعددة، لأنهم لما زعموا ذلك، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى، أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يذمهم على هذه الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكى يعلم الناس جميعاً أن دعواهم لا أساس لها من الصحة.

وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال { إِيمَانُكُمْ } ولم يقل الإيمان، لأنه ليس إيماناً صحيحاً وإنما هو إيمان مزعوم، فإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بعقولهم.

وقوله تعالى: { إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } تشكيك فى إيمانهم بالتوراة، وقدح فى صحة دعواهم فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة سواه وعن ارتكاب السوء والفحشاء.

فالجملة الكريمة فى معنى النفى لادعائهم الإيمان بالتوراة لأنها ما أمرت بشيء يبغضه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير: وقوله: { إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم.

وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به. وإنما ذلك نفى من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم، والذى يحملهم عليه البغى والعدوان ".

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة، والبراهين القاطعة على كذب اليهود فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، ووبختهم على مزاعمهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة.

هذا، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات، فقد قال - رحمه الله -:

يقول الله تعالى فى ذكر حجاج اليهود: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ... }.

هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

1 - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

2 - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.

3 - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

وأقسم لو أن محامياً بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد أمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذه اللفظ الوجيز { آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ }. وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته. فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله (على محمد)، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.

أتدرى لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائداً، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسداً.

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل.

وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الإسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح.

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا. والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله: { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } وهذا هو المقصد الأول، وقد زاد إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها.

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثانى، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، أنظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً له، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال:

{ وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ } أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل؟.. ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول: كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل هو الحق كله، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر؟

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشىء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان، ولكنهما فى شأنين مختلفين، فلا يشهد بعضها لبعض، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصدقاً لما بين يديه من الكتب، فكيف يكذب به من يؤمن بها.

فانظر إلى الإحكام فى صنعه البيان: إنما هى كلمة رفعت وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر، وسداً لكل باب من أبواب الهرب، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت خطوة واحدة، وفى غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً. وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقه متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التى لا سبيل لإنكارها فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره { قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ.{
تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهو الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟؟..

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تـأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى أول الأمر: إن هذا " ظلم " ، وفى الثانية (بئسما صنعتم، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر ".

ثم أمر الله - تعالى - نبيه " صلى الله عليه وسلم " أن يرد على اليهود فى دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال - تعالى -:-

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)

معنى الآيات الكريمة إجمالا:

قل - يا محمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم، وسالمة لكم دون غيركم، وليس لأحد سواكم فيها حق. فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها.

ثم أخبر الله أن هذا التمنى لن يحصل منهم فقال:

{ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً } أى الموت { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } أى بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية { وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمينَ } الذين وضعوا الأمور فى غير موضعها، فادعوا ما ليس لهم، ونفوه عمن هو لهم.

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا نظير له ولا مثيل فقال: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ } متطاولة { وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ } أى: وأحرص عليها - أيضاً - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياه الدنيا

{ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } أى يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب
{ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون } أى: لا يخفى عليه أعمالهم، فهو محاسبهم عليها، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب.

وقوله تعالى: { قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، والمراد بالدار الآخرة: الجنة ونعيمها، ومعنى { خَالِصَةً } سالمة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

قال الإمام ابن جرير: " يقال: خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى، ويقال منه خلص هذا الشىء، فهو يخلص خلوصاً وخالصة، والخالصة مصدر مثل العافية.. ".

وقوله تعالى: { فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ } التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية فى الشىء. بحيث توده وتحب المصير إليه، وهو يستعمل فى المعنى القائم بالقلب كما بينا، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى، كأن يقول الإنسان بلسانه، ليتنى أحصل على كذا.

والاستعمال الثانى هو المراد بقول تعالى: { فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ } أى اذكروا بألسنتكم لفظاً يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه. وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالضمائر والقلوب.

ومعنى الآية الكريمة. قل يا محمد لليهود: إن كانت الجنة خاصة بكم، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون، فتمنوا الموت بألسنتكم لكى تظفروا بنعيمها الدائم، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له فى الآخرة، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا.

قال الإمام الرازى: (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة. ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ومنازعته معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة. ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لابد أن يكون راغباً فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا الموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت. ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ما تمنوا الموت، بل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائها فى قولهم: " إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ".

وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وهذا رأى جمهور المفسرين.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضاً إلى معناها. إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة، والقرآن حينما دعا إليها نصارى نجران، جاء اللفظ بها صريحاً فى قوله تعالى:

{ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ }

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى: { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمينَ }.

أى: لا يتمنى اليهود الموت أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنيه، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخبرهم خبراً إلا

كان حقاً كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت، خوفاً من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال:*" لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه."*

وقال ابن جرير فى تفسيره: **" وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا؛ ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا "** قال حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام ابن كثير: ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به ".

وقال صاحب الكشاف: قوله: { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً } من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به، كقوله تعالى:{ وَلَن تَفْعَلُواْ }

فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت: قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك ".

ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته، ويصرون على جحود نبوته؛ فلا يقدح فى هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى.

وقوله تعالى: { وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمينَ } وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله فى دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم فى غاية الحرص على الحياة فقال تعالى: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }.

ومعنى الآية الكريمة: ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة، وأحرصهم عليها، وأشدهم كراهية للموت " وليس ذلك عندما

يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معانى الراحة والطمأنينة، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ فى هذه الدنيا، وهم فى حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهوراً طويلة، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى: { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ.{

وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم فى دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش، كما يشعر بذلك التنكير فى قوله تعالى { عَلَىٰ حَيَاةٍ }.

والمراد بالناس جميعهم، وأفعل التفضيل فى { أَحْرَصَ } على بابه، لأن الحرص على الحياة غريزة فى البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسباباً.

فالناس جميعاً وإن كانوا يشتركون مع اليهود فى الحرص على الحياة، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شىء.

ونكر - سبحانه - الحياة التى يحرصون عليها، زيادة فى تحقيرهم، فكأنه - سبحانه - يقول: إنهم شديدو الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق الحياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة، فمن أمثال اليهود المشهورة " الحياة وكفى ".

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة، تؤدى إلى الجبن، واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

وقوله تعالى: { وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ } عطف على الناس، لأنه لما كان قوله تعالى: { أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ } فى معنى: أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى، فيكون قوله: { وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ } معطوف عليه، فيكون المعنى: أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة.

والذين أشركوا، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أفردوا بالذكر مع أنهم من الناس، مبالغة فى توبيخ اليهود وذمهم، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التى تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة.

قال صاحب الكشاف: " وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك ".

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى: { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهوراً كثيرة، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل العمر، وعدم طيب العيش.

فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم فى التهالك على الدنيا ولتحقيق عموم النوعية فى الحياة المنكرة، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام، أو أكثر، فجيء بهذه الجملة الكريمة. لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة، التى لا هناء فيها ولا راحة، والتى استعاذ من بلوغها المؤمنون.

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة، لأن الموت لا يتركهم مهما طال عمرهم، فقال تعالى: { وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ } أى: وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له، ولا بمنجيه منه.

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم، وقطع لحبال مطامعهم، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم.

وفى التعبير { بِمُزَحْزِحِهِ } أشارة إلى أن طول عمرهم، ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم، وقوله: { وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم، رداً يبطل حجتهم، ويفضح مزاعمهم، ويكبت نفوسهم، ويخرس ألسنتهم، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات، واقترفوا من أكاذيب.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لوناً عجيباً من ألوان اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى -:

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (98)

فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقاً من رذائل اليهود وهى عداوتهم لملك من ملائكة الله، لا يأكل مما يأكلون، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإذا فليس هناك مقتض لعداوته، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحى من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم وهم يحسدونه على النبوة، فلج بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل - أيضاً - وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم فى دينهم وفى دنياهم. ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لا تفرق بين الخير والشر.

ومعنى الآيتين الكريمتين، قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبريل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيداً لما نزل قبله من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة، وقل لهم كذلك من كان معادياً لله أو لملك من ملائكته أو لرسول من رسله، فقد كفر وباء بغضب من الله، ومن غضب الله عليه، فجزاؤه الخزى وسوء المصير.

قال الإمام ابن جرير: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً، على أن هذه نزلت جواباً ليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولى لهم).

وروى البخارى فى صحيحه - <u>عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: " سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى أرض يخترف - أى يجنى ثمارها - فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، فيم أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرنى بهن جبريل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة - فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية: { قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ... } الآية ثم قال: أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب! وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن</u>

تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أى رجل فيكم عبد الله؟ قالوا: خيرنا وابن حبرنا، وسيدنا وابن سيدنا: قال " أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبد الله فقال: " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " ، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله."

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: " أن اليهود بعد أن سألوا النبى صلى الله عليه وسلم أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: وليى جبريل، لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندما نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله - تعالى - قوله: { قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ... } الآيات.

وفى حديث للإمام أحمد والترمذى والنسائى " قال اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهي التى نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخير، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - قالوا: جبريل ذلك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله - تعالى -: { قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ } الآية.

فيؤخذ من هذه الأحاديث وما فى معناها أن اليهود فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة، قد تكررت منهم فى مواقف متعددة بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم وأن الذى حملهم على ذلك هو حسدهم له، وغيظهم من جبريل، لأنه ينزل بالوحى عليه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: " ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام ".

وفى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظ (قل) كى يرد على اليهود، تثبيت له، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحى، وهو جبريل - عليه السلام -.

وقوله تعالى: { مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ } ، شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن الله - تعالى - لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادى جبريل، إن وجد معاد آخر له سواهم.

وقوله تعالى: { عَلَىٰ قَلْبِكَ } زيادة تقرير للتنزيل، ببيان محل الوحى، وإشارة إلى أن السبب فى تمكنه صلى الله عليه وسلم من تلاوة القرآن الكريم، وإبلاغه للناس، ثباته فى قلبه.

وقوله تعالى: { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ } معناه: فلا موجب لعداوته. لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره. وإذاً فعداوته عداوة لله فى الحقيقة والواقع، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط وقائمة مقامه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف استقام قوله تعالى: { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ } جزاء للشرط؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب التى بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

والثانى: إن عاداه أحد فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابهم، وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك يحرفونه ويجحدون موافقته له. كقولك: " إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه ".

وقوله - تعالى -: { بِإِذْنِ ٱللَّهِ } أى بأمره، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل، الذى أنزل بالقرآن بإذن الله، لا من تلقاء نفسه، وهذه حجة أولى عليهم.

وقوله تعالى: { مُصَدِّقاً } حال من الضمير العائد على القرآن الكريم، فى قوله { نَزَّلَهُ } أى أنزله حالة كونه مؤيداً للكتب السماوية التى قبله ومن بينها التوراة، وهذه حجة ثانية عليهم.

ثم عززهما بثالثة ورابعة - فقال تعالى: { وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ } أى هذا القرآن الذى نزل مصدقاً لكتبكم، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح، والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتيه وتنقذه مما هو فيه من ضلالات ولو كان الواسطة فى مجيئها عدواً له، وهو - أيضاً - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى - عنهم فى الدنيا والآخرة، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفلحين وبذلك يكون القرآن قد أقام حججاً متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين. وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات.

- أولها: أنه منزل من عند الله وبإذنه.
- وثانيها: أنه منزل على قلب النبى صلى الله عليه وسلم.
- وثالثها: أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية.
- ورابعها: أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه.
- وخامسها: أنه بشارة سارة للمؤمنين.

ثم بين - تعالى - حقيقة الأمر فيمن يعادى جبريل وأن عداوته عداوة الله - تعالى - فإنه أمين وحيه إلى رسله ليس له فى ذلك شىء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى: { مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلاۤئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ }.

والمعنى: أن عداوة جبريل عداوة لله، وأن عداوة محمد صلى الله عليه وسلم عداوة لله - أيضاً - فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع.
ومعنى عداوة العبد لله: كفره به ومخالفته لأوامره ونواهيه ومعنى عداوته لملائكته: إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافى عصمتهم ورفعة منزلتهم. ومعنى عداوته لرسله: تكذيبه لهم وتعمده إلحاق الأذى بهم ومعنى عداوة الله لعبده: غضبه سبحانه - عليه، ومجازاته له على كفره. وصدر - سبحانه - الكلام باسمه الجليل تفخيماً لشأن ملائكته ورسله وإشعاراً بأن عداوتهم إنما هى عداوة له - تعالى -.

وأفرد - سبحانه - جبريل وميكال بالذكر، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكائيل، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير: " فإن قال قائل: أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل بلى، فإن قال: فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما فى الآية فى جملة أسماء الملائكة؟ قيل: معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا، وزعمت أنها كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل صاحبه، أعلمهم الله - تعالى - أن من كان لجبريل عدواً فإن الله عدو له وأنه من الكافرين، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه، لئلا يقول منهم قائل: إنما قال الله: من كان عدواً لله وملائكته ورسله، ولسنا لله ولا لملائكته، ولا لرسله أعداء، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصاً، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلا فيهم، فنص الله - تعالى - على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقلع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويههم أمورهم على ضعاف الإيمان ".

وقال - سبحانه - فى ختام الآية الكريمة { فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ } ولم يقل فإن الله عدو له أو لهم، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم سببها كفرهم فإن الله لن يعادى قوماً لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال صاحب المنار: " فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا بها، فهم لم يدعوا عداوة لهؤلاء كلهم، لكنهم كذلك فى نفس الأمر، فأراد أن يبين حقيقة حالهم فى الواقع، وهى أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذى يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى صلى الله عليه وسلم لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر، وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التى انفرد بها ".

وبهذا تكون الآيتان الكريمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة، لمعاداتهم لجبريل وتكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وبينتا ما عليه أمرهم من خزى وهوان بسبب هذه العداوة التى لا باعث عليها إلا الحسد، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

ثم أخذ القرآن فى تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يفعله معه اليهود فقال تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)

أى: لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله، وبينا لك فيها علوم اليهود، ومكنونات سرائرهم وأخبارهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم من كتبهم، وما بدلوه من أحكامهم قال تعالى:

{ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

وإن هذه الآيات التى أنزلها الله إليك يا محمد، ما يكفر بها، ويجحد صدقها إلا المتمردون من الكفرة، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرماته.

والهمزة فى قوله { أَوَكُلَّمَا } للإنكار، والواو للعطف على محذوف يقتضيه المقام: أى أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا عهداً نبذه فرق منهم، أى: طرحوه ونقضوه من النبذ وهو إلقاء الشئ وطرحه لقلة الاعتداد به ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء وهو حقيقة فى الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز.

والضمير فى قوله: { مِّنْهُم } يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العهود
وقوله: { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } يفيد الترقى إلى الأغلظ فالأغلظ، أى أن فريقاً منهم عرف بنقضه للعهد، وأكثرهم عرف بكفره وجحده للحق.

قال صاحب الكشاف، واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا

{ ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ }

وقال الرازى: " والمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التوبيخ والتبكيت. ودل بقوله: { أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ } على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه، بل يد على أن ذلك كالعادة منهم، فكأنه - تعالى - أراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم... ".

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن نبذ اليهود لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام، فقال - تعالى -:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)

المعنى: وحين جاء اليهود وأحبارهم رسول من عند الله، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التى تشهد بصدقه، وراء ظهورهم، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان - عليه السلام - ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان - عليه السلام - كان ساحراً، وما تم له ملكه العريض، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا.

{ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } علماً نافعاً. { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ } بالله ورسوله محمد صلى

الله عليه وسلم كما أرشدتهم إليه التوراة، { واتَّقَوْا } المعاصى والآثام لأثيبوا مثوبة من عند الله هى خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله { لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ }.

وقوله تعالى: { وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ }.. إلخ الآية.

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم وطرح لتعاليم كتابهم التى أمرتهم باتباعه.

أخرج ابن جرير عن السدى قال فى قوله تعالى: { وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ }. أى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها.

فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت، فذلك قول الله { كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } أى كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود، فنقضوا عهد الله، لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه.

وفى وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له، ومبالغة فى انكار عدم إيمانهم به، وإغراء للناس جميعاً بالدخول فى دعوته، لأنه ليس رسولا من تلقاء نفسه، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى -:

والمراد { لِّمَا مَعَهُمْ } التوراة. وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم لها، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها فى أصول الدين، وأن ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام - لا تنطبق إلا عليه صلى الله عليه وسلم.

وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذى نزل لهدايتهم بالنبذ، مبالغة فى عدم اعتدادهم، وتناسبهم إياه، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء ما لا يعتد به.

وفى إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب، سخرية بهم، واستجهال لهم، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه، ولو كان النابذون من المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم، ولكن أن يكون التاركون للنور هم الذين أوتوه وأكرموا به، فذلك هو الضلال المبين.

والمراد من { كِتَابَ ٱللَّهِ } الذى نبذوه لما جاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التوراة، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقاً، لاتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ذكرت صفاته فيها، والذى وجب عليهم بمقتضى كتابهم التوراة الإيمان به، فهم بجحودهم لنبوته، يكونون جاحدين لتوراتهم التى شهدت له بالصدق.

وقيل المراد بكتاب الله الذى نبذوه القرآن، لأنهم لم يؤمنوا به، بل تركوه بعد سماعه، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول.

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح، لأن النبذ يقتضى سابقة الأخذ، فى الجملة. وهو متحقق بالنسبة للتوراة، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر، إذا كان المراد بالكتاب الذى نبذوه، هو عين الكتاب الذى نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة.

وقوله تعالى: { وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } كناية عن إعراضهم الشديد عنه، وتوليهم عن تعاليمه.

تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره، أى تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، ففى هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه - سبحانه - تركهم لكتابه، بحالة شيء يرمى به وراء الظهر استهانة به. وفى إضافة الوراء إلى الظهر، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله. وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه.

فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره، وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس، ويجرئ على ترك الباقى...

وقوله تعالى: { كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } جملة حالية، أى طرحوه، وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئاً، ومن لا يعرف أنه كتاب الله.

وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله - حق العلم - لأنهم نبذوه مكابرة وعناداً، ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء، فى جحود الحق والانغماس فى الآثام.

وقال - سبحانه -: { كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } بنفى الحال والاستقبال للإشعار بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإنابتهم، بل هم تمر بهم الأيام، وتتوالى عليهم العظات، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق، فهم مستمرون على طرح كتاب الله فى كل وقت وآن، ومصممون على ذلك.

ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل بعد أن وبخهم على نبذهم لكتابه فقال تعالى:

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)

وَاتَّبَعُوا :، أي: الناس {مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة:102]،
فالشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، وقد افتروا على سليمان وكذبوا عليه بعد وفاته، وقالوا: إنه يعلم الناس السحر، وانطلى هذا على كثير من الناس، فبرأ الله تعالى نبيه سليمان مما ألصقت به الشياطين وافترته وكذبته عليه.

على ملك سليمان أي على شرعه ونبوته
قوله تعالى : (وما كفر سليمان) تبرئة من الله لسليمان ولم يتقدم في الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر ، ولكن اليهود نسبته إلى السحر ، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر . ثم قال : ولكن الشياطين كفروا فأثبت كفرهم بتعليم السحر السحر ، قيل : السحر أصله التمويه والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى : يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ولم يقل تسعى على الحقيقة أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل

والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء ، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر .

الفرق بين السحر والمعجزة ، قال علماؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد . والمعجزة لا يمكن الله أحدا أن يأتي بمثلها وبمعارضتها ، ثم الساحر لم يدع النبوة فالذي يصدر منه متميز عن المعجزة ، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدي بها .

أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ، ودل إنكارهم على قلة مبالاتهم وركاكة دياناتهم ، وليس في إثباتهم مستحيل عقلي ، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم ونص الشرع على ثبوته ، قال الله تعالى : ولكن الشياطين كفروا وقال : ومن الشياطين من يغوصون له إلى غير ذلك من الآي ، وسورة " الجن " تقضي بذلك ، وقال عليه السلام : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس

وما أنزل على الملكين ما نفي ، والواو للعطف على قوله : وما كفر سليمان وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، التقدير وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله : ولكن الشياطين كفروا . هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين ، قال الله تعالى : ومن شر النفاثات في العقد .

وأما ماشتهر عن ان هاروت وماروت ملكان فالقصة لم تثبت بسند صحيح أبداً لكن القصةكذلك يردها العقل ، فإن الرب تبارك وتعالى نزه الملائكة عن مثل هذه الأعمال، والإشارة القرآنية في ذكرهما عليهما السلام يدل على أن شيئاً من ذلك لم يقع، ولو كان وقع منهما ما وقع ما يعبر عنهما بأنهما ملكان فيقال: وما أنزل على هاروت وماروت،

ثم كيف يمكن للناس بعد ذلك أن يخوضوا فيقولوا: إن هاروت وماروت أصلهما ملكان،

لكن لما قال الله: وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ،ومإينزل الله الكفر ابدا

ولا يأمر به فالمستقر في أذهاننا وفق القرآن أن الملائكة لا تعصي الله ما أمرها، وتفعل ما تؤمر به، ولا خبر ولا دليل ولا حجة يدفع بها هذا اليقين.

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم يريد في الآخرة وإن أخذوا بها نفعا قليلا في الدنيا . وقيل : يضرهم في الدنيا ; لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر في الدنيا إذا عثر عليه ; لأنه يؤدب ويزجر ، ويلحقه شؤم السحر .

وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ما هم ، إشارة إلى السحرة . وقيل إلى اليهود ، وقيل إلى الشياطين . بضارين به أي بالسحر . من أحد أي أحدا ، ومن زائدة . إلا بإذن الله بإرادته وقضائه لا بأمره لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق بها . { وَلَقَدْ عَلِمُوا } أي: اليهود { لَمَنِ اشْتَرَاهُ } أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة.

{ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ } أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

{ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } علما يثمر العمل ما فعلوه ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق فأخبر أنهم قد علموا . ثم قال :ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون فأخبر أنهم لا يعلمون أن يكون الذين يعلمون الشياطين ، والذين شروا أنفسهم - أي باعوها - هم الإنس الذين لا يعلمون ..

1- أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: { واتبعوا ما تتلو الشياطين }؛ ويدل على هذا أن أحدهم . وهو لبيد بن الأعصم . سحر النبي صلى الله عليه وسلم.

2- أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: { ما تتلو الشياطين]..

3- أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: { ما تتلو الشياطين على ملك سليمان }..

4- أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: { وما كفر سليمان }؛ إذ لو أقرهم على ذلك . وحاشاه . لكان مُقراً لهم على كفرهم..

5- أن تعلم السحر، وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية أنه كفر أكبر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: { ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر }، وقوله تعالى: { وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر }؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين.

6- أنّ من عِظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء، وزوجه؛ لقوله تعالى: { فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه }؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح أن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: "نِعْم أنت"(2) ؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء، وزوجه؛ حتى إنه . والعياذ بالله . يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش . ولا لحظة . إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر . نسأل الله العافية ... 7- أن الأسباب وإن عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: (وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله).

8- أن قدرة الله عز وجل فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب . والله لم يأذن . فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله..

9- الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائماً؛ لقوله تعالى: { إلا بإذن الله }؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذاً تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار..

طريقة علاج السحر :

قال الامام العلامة سليمان العلوان ثبته الله

لقد جُرب السدر ونفع بإذن الله في التداوي من السحر"

إذا وضع معه ملح وثُليت عليه آيات السحر. وقد ذكر هذا الليث وابن القيم.

ذكر هذا جمع من السلف منهم الليث ابن أبي سليم . وذكر هذا الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين.

وكيف طريقة استخدام السدر ؟

جـ/ يغتسل به المسحور .

يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر

فيدقه بين حجرين او يطحنه ثم يضربه بالماء

ويقرأ آية الكرسي والقواقل (قل هو الله احد وقل اعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب الناس

ثم يحسو منه ثلاث حسيات ثم يغتسل به .

قال ابن حجر "فتح الباري"

هي أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر، فيدقها بحجر، أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل، ويقرأ فيها آية الكرسي و(قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) و(قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس)، وآيات السحر في سورة الأعراف وهي قوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ* فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ {الأعراف: 117-119}.

والآيات في سورة يونس وهي قوله سبحانه: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ* فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ* فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

{يونس: 79-82}

والآيات في سورة طه: (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى

وبعد قراءة ما ذكر في الماء، يشرب منه ثلاث مرات، ويغتسل بالباقي، وبذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر، فلا بأس حتى يزول الداء. انتهى.

قلت : والافضل إضافة على ما سبق قراءة سورة البقرة على الماء لما فيها من نفع وكذلك آيات الرقية عموما ...

ويقول الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين - غفر الله له - :

(وكذا رقيت على بعض الأقارب أو الأحباب الذين حبسوا عن نسائهم ، بما ذكره ابن كثير من ورقات السدر ، وقراءة الآيات التي ذكرها ، فوقع الشفاء بإذن الله)

(الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة –

10- أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق } يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيباً من الآخرة..

11- أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: { ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق }..

12- أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: { ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير } أي خير من كل شيء؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها"

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واْتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } أى: لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالتوارة إيماناً حقاً، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتمويه، لكانت لهم مثوبة من عند الله، هى خير لهم من السحر وغيره، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك، واستبدلوا بالسحر الإيمان والتقوى، ولكنهم قوم لا يعقلون.

فقوله تعالى: { لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ } جواب للو الشرطية، وأصل التركيب، لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: (فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية فى جواب لو؟ قلت: لما فى ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع فى سلام عليكم لذلك.

وقال الإمام الآلوسى: (المثوبة: اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير. ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر، ليشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن شيئاً قليلا من ثواب الله -

تعالى - فى الآخرة الدائمة، خير من متاع كثير فى الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى.

وقوله تعالى: { لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } شرط آخر محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه، وحذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة { لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ } عليه. أى: لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى سقناها فى هذا المبحث قد دمغت بنى إسرائيل بجحود الحق، ونبذهم لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل، وسيرهم فى طريق الشر عن تعمد وإصرار، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم، وحماقة تفكيرهم وسوء تدبيرهم. واستحواذ الشيطان عليهم..

{ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِين }

هذا، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث، أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول: السحر: فى أصل اللغة معناه: الصرف، ومنه قوله تعالى

{ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ }

أى: فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقد ذكر السحر فى القرآن والسنة، واتفق علماء المسلمين على أن هناك شيئاً يسمى سحراً، إلا أنهم اختلفوا فى تصويره.

فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن للسحر آثارا حقيقية، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية، إلا أن الفاعل الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة منها.

أولا: أن الله - تعالى - قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يستعيذ به

{ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ }

وهم السحرة - على أرجح الأقوال.

قال الإمام ابن كثير: قوله تعالى{ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فى ٱلْعُقَدِ }

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، يعنى السواحر قال مجاهد " إذا رقين ونفثن فى العقد ".

فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من شرور السحرة.

ثانياً: قال الإمام البخارى: - فى باب هل يستخرج السحر -: حدثنى عبد الله بن محمد، قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثنى آل عروة عن عروة، فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه " عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك. فقال: " يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذى عند رأسي للآخر، ما بال الرجل: مطبوب، قال ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم - رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً - قال. وفيم: قال: في مشط ومشاطه، قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان. قالت: فأتي البئر حتى استخرجه، فقال: " هذه البئر التي أريتها وكأن نخلها رءوس الشياطين " قال فاستخرج - أى السحر - قالت: فقلت أفلا - أى - تنشرت؟ فقالت: " إن الله قد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً " ".

فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر فى جسم الرسول صلى الله عليه وسلم بنوع من المرض أو الثقل، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير فى عقله.

قال الإمام ابن القيم: هذا هو الحديث الذى رواه البخارى، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون فى صحته، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقه، وهؤلاء أعلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأيامه.

وقال الإمام القرطبى " الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق، ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان، وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله.

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. قال المازرى: " مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة. خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها.

وقد ذكره الله - تعالى - فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم. وذكر فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به. وأنه يفرق بين المرء وزوجه. وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته. وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر فى العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام،

أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر. قال: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث لسبب آخر. فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع وهذا الذى ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك.

قال القاضى عياض: وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على قوله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله فى الحديث: " حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن " أن يظهر من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور.

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى فى سحرة فرعون{ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ }

فأخبر - سبحانه - أن ما ظنوه سعياً منها لم يكن سعياً على الحقيقة إنما كان تخييلا وتمويهاً. وقال تعالى فى سحرة فرعون أيضاً{ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ }

أى فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وأرهبوهم بما فعلوه، وجاءوا بسحر عظيم فى فنه.

والذى نراه أن السحر على أضرب منها:

أولا: ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان حيواناً وعكسه، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء. وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع فعلا. ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع، بأن المعجزة خارق يظهر على يد من يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة، والسحر ليس فيه دعوى نبوة ولا معارضة.

هذا، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه، ولا يظهر إلا على يد شرير بخلاف المعجزة.

قال فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله : وهذا النوع لم يقع لنا دليل فى الشريعة على وقوعه، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة والسحر فرقاً واضحاً تقتضى عدم وقوعه، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعباناً، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش، أعنى أنه لا يجزى على يده من خوارق العادات، مثل ما يجرى على أيدى الأنبياء للإعجاز.

ثانياً: أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عيلها الضرر بدون مماسة ولا ملابسة لمن

وقع عليه الضرر، وهذا الضرب قد جوز وقوعه أهل السنة ومنعه المعتزلة، ومن أمثلته ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر فى هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة أنهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد صح الحديث أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال.

ثالثاً: مزاولة أسباب يترتب عليها آثار ظاهريه لا حقيقية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون فى قوله تعالى:

{ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ }

وفى قوله تعالى:

{ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ }

هذا، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للأذى، وجاءت تعاليمه بذمة وتحريمه، وتوعدت مرتكبه بالعقوبات الأليمة، ففى الحديث الشريف " حد الساحر ضربه بالسيف ".

وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق، وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه، حكم عليه بدية مناسبة.

وبعد: فهذه كلمة ذكرناها عن السحر، لم نقصد بها الخوض فى تفصيلاته. وإنما قصدنا بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن رذائل اليهود التى منها نبذهم لكتاب الله واتباعهم للاوهام والأباطيل والأكاذيب.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

{ رَاعِنَا } من المراعاة، وهى المبالغة فى الرعى بمعنى حفظ الغير، وإمهاله، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدثهم بحديث راعنا يا رسول الله، أى: راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه,,
فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم، ويقولون { رَاعِنَا } يا أبا القاسم، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والإنتظار، وهم يريدون فى الحقيقة الإساءة إليه - صلى الله

عليه وسلم إذ أن هذه الكلمة عبرية كانوا يتسابون بها يقصدون جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة التى هى الحمق والخفة، فنهى الله - تعالى - المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم والتنقيص من شأنه.

قال قتادة: " كانت اليهود تقول للنبى صلى الله عليه وسلم راعنا سمعك، يستهزئون بذلك وكانت - هذه الكلمة - فى اليهود قبيحة ".

وقال الإمام ابن كثير: " نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولوا راعنا يورون بالرعونة كما قال تعالى:

{ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم، وأنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا ".

وقال الإمام ابن تيميه: " كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك، يعنون المراعاة، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها " سعد بن معاذ " ففطن لهم، - وكان يعرف لغتهم - فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والذى نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها، فأنزل الله - تعالى - { يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا } لكى لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا إلى شتم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى: { وَقُولُواْ ٱنْظُرْنَا } أى: لا تقولوا تلك الكلمة - وهى { رَاعِنَا } أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم صلى الله عليه وسلم وقولوا مكانها { ٱنْظُرْنَا } أى: انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك، من نظر بمعنى انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى

{ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ }

أى: انتظرونا نقتبس من نوركم.

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل، وهو أن يتجنب الإنسان فى مخاطباته الألفاظ التى توهم جفاء أو تنقيصاً فى مقام يقتضى إظهار مودة أو تعظيم.

تم بين - سبحانه - مصير اليهود المؤمل جزاء تعديهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: { وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، أى: لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة { رَاعِنَا } وسيلة إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم عذاب أليم جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

هذا، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام محرف لا يفطن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بما يكبتهم ويخزيهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك قال:

" 1 - مر يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السام عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وعليك " ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه - أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال يقول " السام عليك " قالوا يا رسول الله ألا نقتله. قال: " لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " ".

2 - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت:

" دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا:

السام عليك قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله " فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟

قال " لقد قلت وعليكم " ".

3 - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: " سلم ناس من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا: قال بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنما نجاب ولا يجابون علينا ".

وإذن فالآية الكريمة وهى قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا } إلخ، وهذه الأحاديث الشريفة تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية القول الملتوى القبيح، والخطاب المحرف السيىء، ولكن الله - تعالى - أحبط خطتهم، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التى كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بما يغيظهم ويخزيهم، وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح وأيد الله - تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى ما يضمره لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى:

مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

{ مَّا يَوَدُّ } أى: ما يحب، إذ الود محبة الشيء مع تمنيه، يقال: ود فلان كذا يوده وداً ومودة بمعنى أحبه وتمناه.

قال صاحب الكشاف: " ومن الأولى فى الآية للبيان، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان، أهل الكتاب والمشركون، والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية ".

وقوله - تعالى -: { مَّا يَوَدُّ }.. إلخ الآية بيان لما يبيته الكافرون - خصوصاً اليهود - للمسلمين من حقد وكراهية وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم، والثقة بهم.

وفى التعبير بقوله تعالى: { مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ } دون ما يود أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً صلى الله عليه وسلم الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضاً - يضاهون كفرة أهل الكتاب، فى كراهة نزول أى خير على المؤمنين، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم من دون قويم، وقرآن كريم، وهداية عظمى، وأخوة شاملة، وأمن بعد خوف، وقوة بعد ضعف.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحى الصادق، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والحجة البالغة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم، وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

والمشركون كرهوا ذلك - أيضاً - لأن فى انتشار الإسلام، وفى تنزيل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ما يخيب آمالهم فى إبطال الدعوة الإسلامية، وإضعاف شوكتها والنصر على أتباعها.

وقوله تعالى: { وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ }.

رد عليهم بما يكشف عن جهلهم وجهل جميع الحاسدين، لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه - على المحسود والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق فى الإعطاء والمنع فكان من الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أى خير على المؤمنين أن يريحوا أنفسهم من هذا العناء، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء، لأن الله - تعالى - يهب خيره لمن يشاء.

والاختصاص بالشيء: الانفراد به، تقول: اختص فلان بكذا أى انفرد به، ويستعمل متعدياً إلى المفعول به، فتقول: اخصصت فلانا بكذا أى أفردته به وجعلته مقصوراً عليه.

وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص فى الآية الكريمة.

وقيد - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ليعلم الناس جميعاً، أن إفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها، وليس لأحد كائناً من كان أى تأثير فى ذلك.

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه. أى: يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها، وهى تتناول النبوة. والقرآن، والنصر، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين.

وقوله تعالى: { وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ } تذييل لما سبق أى كل خير يناله العباد فى دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم، وفى ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم، وتعريض باليهود وغيرهم ممن حسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم على أن آتاه الله النبوة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إنى أصطفى للنبوة من أشاء من عبادى وهى لا تدرك بالأمانى، ولكنى أهبها لمن هو أهل لها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم، وسنة نبيهم.

******

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذى أثار اليهود حوله الشبهات، وجادلوا فيه النبى صلى الله عليه وسلم.

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية، أو حكماً بحكم، وقالوا: ألا ترون إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غداً، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً.

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون جواب، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيمانا، وهذه الآيات هى قوله تعالى:

.{ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ...فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ }

.

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)

النسخ فى اللغة الإبطال والإزالة، يقال. نسخت الشمس الظل تنسخه، إذا أذهبته وأبطلته.

وفى عرف الشرع: بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا.

وننسها من أنسى الشىء جعله منسياً.

فمعنى نسخ الآية فى قوله تعالى: { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ } رفع حكمها مع بقائها.

ومعنى إنسائها فى قوله - تعالى -: { نُنسِهَا } رفع الآية من نظم القرآن جملة.

وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء، لأن من شأن مالا يبقى فى النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به.

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة، بعد أن يقضى الله بنسخها.

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشىء من القرآن، والله يقول { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }

ومما يدل على نسخ الآية المنساة، أى: انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى: { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها، فيكون قوله تعالى: { أَوْ نُنسِهَا } معبراً عن حالة تعرض فى بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا -.

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص، أن ما ينسى لعدم حضوره فى الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه، فربما يقع فى الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى غناءه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو { ننسأها } بالهمزة، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ فى قوله تعالى: { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ } على النوعين السابقين وهما: نسخ الآية حكما فقط، ونسخها حكماً وتلاوة.

ومعنى { ننسأها } تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها، وننزل ما يقوم مقامها فى القيام بالمصلحة.

والخيرية والمماثلة فى قوله تعالى: { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } ترجع إلى ثواب العمل بها. فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها، وقد يكون مماثلا له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها، أقوم على المصلحة من الأخرى.

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله: { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } ساق جملة كريمة فى صورة الاستفهام التقريرى، مخاطباً بها الأمة الإسلامية فى شخص نبيها صلى الله عليه وسلم لتكون دليلا على هذا الثبوت، وهذه الجملة هى قوله تعالى: { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } والمعنى أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر فى وقت بأمر، ثم ينسخه أو يستبدل به آخر لمقتضيات الظروف والأحوال.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)

والمعنى: أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواه، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء، من حقه أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتاً لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم، فقال تعالى

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108)

والمعنى: أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء فى ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواه، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فى دنياه وأخراه.

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء، من حقه أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتاً لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم، فقال تعالى: { أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ }.

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقال له:

{ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً }

وقالوا له:

{ ٱجْعَلْ لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ }

ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار، وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفى النهى عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

ثم نبه الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يضمره لهم اليهود من أحقاد وشرور فقال - تعالى -:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

معنى الآية الكريمة: أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسداً لكم وبغضاً لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا صلى الله عليه وسلم فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وشرورهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن الله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير ".

وقوله تعالى: { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً } بيان للون من ألوان الشرور التى يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر

الذى أنقذهم الله - تعالى - منه.

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمنى الذميم إلى الكثرة منهم، انصافاً للقلة المؤمنة التى لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى: { بَعْدِ إِيمَانِكُمْ } مبالغة فى ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذى حملهم على هذا التمنى الذميم هو الحقد والحسد، فقال تعالى: { حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ } أى: أن هذا التمنى لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذى استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: " والحسد: قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل فى قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهى **الغبطة** والمنافسة، وهى محمودة لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل فى غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح فى المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه ".

وقوله تعالى: { مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك فى كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم، رسخ الحسد فى قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.
والجملة الكريمة { حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف فى نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح.

وقوله تعالى: { مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ } يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبى صلى الله عليه وسلم وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبى صلى الله عليه وسلم.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين فى ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعفو والصفح، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى: { فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

العفو: ترك العقاب على الذنب. والصفح: ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف فى وجوههم حتى يأذن الله لكم فى أن تشفوا صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذى يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شىء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى -.

فالمراد بالأمر فى قوله تعالى: { حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِه } الإذن للمسلمين بقتالهم فى الوقت الذى يختاره الله - تعالى - لهم، عندما تكون لهم القوة التى يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

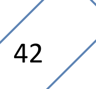
قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: " وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للضعيف الجاهل وفى إنزال المؤمنين على قلتهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غيره مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه ".

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله: { إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أى أن كل شىء داخل تحت قدرته النافذة التى لا يعجزها شىء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين فى الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرد والقتل لليهود الحاقدين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين فى الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التى تطهر قلوبهم، وتزكى نفوسهم فقال - تعالى -:

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)



فقد أمرهم - سبحانه - فى هذه الآية بالمواظبة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة { وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ } بعد ذلك، لترغبهم فى فعل الخير على وجه عام، ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضاً أم نفلا.

وقال { لأَنْفُسِكُم } للإشعار بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه، وأنه سيجد عند الله نظير ذلك الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وفى قوله، عند الله، إشارة إلى ضخامة الثواب، لأنه صادر من الغنى الحميد.

وجاءت جملة { إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } لتأكيد ذلك الوعد، فقد دلت على أن الله - تعالى - لا يخفى عليه عمل عامل قليلا كان أو كثيراً. وإذا كان عالماً محيطاً بكل عمل يصدر من الإنسان، كانت الأعمال محفوظة عنده - تعالى -، فلا يضيع منها عمل دون أن يلقى العامل جزاءه يوم الدين.

وفى إعادة ذكر اسم الجلالة فى هذه الجملة مع تقدم ذكره فى قوله: { تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ } إشعار باستقلال هذه الجملة، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذى تضمنته.

كذلك من فوائد إظهار اسم الجلالة فى مقام يجوز فيه الإضمار، أن تكون الجملة كحكمة تقال عند كل مناسبة، بخلاف ما لو أتى بدل الاسم الظاهر بالضمير فإن إلقاءه عند المناسبة يستدعى أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير.

ثم حكى القرآن لوناً من ألوان المزاعم الباطلة التى درج عليها أهل الكتاب، ورد عليها بما يبطلها فقال:

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (111)

الضمير فى { قَالُواْ } يعود على أهل الكتاب من الفريقين.

والهود: جمع هائد أى متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم فى الزمان.

والمعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانياً، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز، فحكت القولين فى جملة واحدة، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف " أو " ثقة بفهم السامع، وأمنا من اللبس، لما عرف من التعادى بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم

{ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ }

أى: قالت اليهود: كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا.

ولذا قال الإمام ابن جرير: " فإن قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه، وإنما عنى به وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به جمع الفريقان فى الخبر عنهما فقيل: { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ }.

وقوله تعالى: { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم، ما هو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان. سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب.

واسم الإشارة " تلك " مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى: { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ } وهو يتضمن أمانى كثيرة: منها، أن اليهود أمنيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى كذلك أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين ليسوا أهلالها، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعاً فقال تعالى { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ }.

ويرى صاحب الكشاف أنه المشار إليه أمور قد تعددت لفظاً وحكاها القرآن عنهم فى قوله

{ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلاَ ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ }

وفى قوله:

{ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ }

وفى قوله: { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ } ، وعبارته:

فإن قلت: لم قيل { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو إمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم.
أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم.

ويرى صاحب الانتصاف: أن المشار إليه واحد وهو قولهم { لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ } وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت من نفوسهم وأشربتها قلوبهم. فقال: والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها فى نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحداً ونظيره قولهم: معى جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد، تأكيداً لثبوتها وتمكنها، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى:

{ إِنَّ هَـٰؤُلاۤءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ }

فإنه جمع " قليلا " وقد كان الأصل إفراده فيقال " لشرذمة قليلة " كقوله تعالى

{ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ }

لولا ما قصد إليه من تأكيد القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا التأكيد، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانته زيادة على نظرائه، نقلا مجازياً بديعاً فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله المرفق ".

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

أى قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس المجرد التمنى، أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

قال الإمام ابن جرير: " وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين { لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ } إلى إحضار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم فى دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً ".

هذا، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد فى أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل، فلا ينبغى للإنسان أن يقرر رأياً فى الدين إلا أن يسنده إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولا إلا أن يكون مؤيداً بدليل.

أما عدم صحة التقليد فى أصول الدين: أى فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جلى، لأنه يكتفى فى إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة، كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله فى إتقان المخلوقات، أو فى رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستماع إلى القرآن الكريم، أو من سيرته التى لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول، والقصد أن لا يكون إسلامه لمجرد أنه فى بيئة إسلامية أو ولد من أب وأم مسلمين.

وأما التقليد فى الفروع أى فى الأحكام العملية، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقروناً بدليل، وإن كان قاصراً عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم المشهود له بالرسوخ فى علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع ".

ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة فقال تعالى:

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

{ بَلَىٰ } حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق، وقد صدرت الآية التى معنا بحرف " بلى " لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى، ما دام قد أسلم وجهه لله وهو محسن.

وقوله تعالى: { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } المراد به اتجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه الاستسلام والخضوع.

وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعاً.

وقوله تعالى: { وَهُوَ مُحْسِنٌ } من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أى: مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

والمعنى: ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى: { فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }.

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتى:

(أ) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(ب) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة، إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيباً لهم فى الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة، لكى يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة.

(جـ) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران:

أولهما: أن يكون خالصاً لله وحده.

ثانيهما: أن يكون مطابقاً للشريعة التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

قال الإمام ابن كثير: " فمتى كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
" من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " فعمل الرهبان ومن شابهم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث فيهم وإلى الناس كافة، وفى أمثالهم قال الله - تعالى -:

{ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً }

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين ولهذا قال تعالى:

{ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً }

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أبطلتا دعوى اليهود أن الجنة لهم دون غيرهم، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هى إلا من قبيل الأمانى والأوهام وكذبتهم فى أن يكون عندهم أى برهان أو دليل على ما يدعون ثم أصدرتا حكما عاما وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى، وإنما هى لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن.

ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل بعضهم البعض، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك:

{ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ }

إلخ، لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب، المعوجة، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنشنة فيهم.

والشىء: يطلق على الموجود، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، وقد ينفى مبالغة فى عدم الاعتداد به

و**اليهود** كفرت عيسى - عليه السلام - وما زالوا يزعمون أن المسيح المبشر به فى التوارة لم يأت، وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من التدين،
و**النصارى** تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذه النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق منهم يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق.

وجملة { وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ } حالية، والكتاب للجنس. أى: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقى، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها البعض.

وقوله: { كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ } معناه: كما أن أهل الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شىء من الدين الحق. فكذلك قال الذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب، فى شأن المسلمين: إنهم ليسوا على شىء من الدين الحق، فتشابهت قلوب هؤلاء وقلوب أولئك فى الزيغ والضلال.

والهدف الذى ترمى إليه هذه الجملة، هو أن إنكار اليهود والنصارى لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا ينبغى أن يثير شبهة على عدم صحتها، حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعهلم أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها. فكأن القرآن يقول: إن تلاوتهم للكتاب وحدها لا ينبغى أن تكون شبهه.

ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكر كل فريق منهما أن يكون الآخر على شىء حقيقى من التدين، فسبيلهم فى إنكار دين الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به.

وفى هذه الجملة توبيخ شديد لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - فى سلك من لا يعلم.

وقوله: { فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }. صدر بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير المجرور بإضافة بين إليه راجع إلى الفرق الثلاث، وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى.

والاختلاف: تقابل رأيين فيما ينبغى انفراد الرأى فيه.

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، لأنه من المعلوم أن من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق، وعقاب من كان على باطل.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد فضحت أهل الكتاب، حيث بينت كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال، وفى هذا تثبيت للمؤمنين ونهى لهم عن أن ينهجوا نهجهم.

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى فى خراب بيوت الله، فقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه. ويرى آخرون أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بذمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها.

ومن أسم استفهام يراد منه النفى، أى: لا أظلم.
والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيما.

والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بمالا يرضى به، ويطلق على وضع الشىء فى غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا.

وذكر اسم الله كناية عما يؤدى فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى -:

والسعى فى الأصل: المشى بسرعة فى معنى الطلب والعمل.

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل لمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له.

قال القرطبى: " وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه. ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها ".

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل فى خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس. أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش، فهو مفرط فى الظلم بالغ فيه أقصى غاية.

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجىء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل -

{ ويْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ }

والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق ".

وقوله - تعالى -: { أُوْلَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ } معناه: ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون فى خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها.

قال ابن كثير: " وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبى صلى الله عليه وسلم من العام القابل منادياً ينادى برحاب منى " ألا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته ".

وعندما حج النبى صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ. أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام. وهذا هو الخزى فى الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى -: { لَّهُمْ فى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ } لأن الجزاء من جنس العمل.

ثم ختم الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء الساعين فى خراب مساجد الله فقال - تعالى -: { لَّهُمْ فى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فى ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } أى: لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم فى الآخرة

عذاب عظيم يخلدون معه فى النار. وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه فى هوان وذلة، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذى لا يموت فيه ولا يحيا.

ثم أخذ القرآن فى تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بهما هنا جميع جهات الأرض واللام فى قوله: { وَلِلَّهِ } تفيد معنى الملك.

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى. و (ثم) اسم إشارة للمكان.

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التى ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهى القبلة.

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففى أى مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التى أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التى أمرتم بها، والتى تبرأ ذممكم باستقبالها.

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففى الحديث الشريف:*" جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ".*

وكأن الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى -: لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها.

وذيلت الآية بقوله { إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده فى أمر الدين. أى: إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التى افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى -:

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (116)

قوله - تعالى -: { وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً } معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ ".

واتخذ: من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل. والولد: يطلق على الذكر والأنثى، والواحد والجمع.

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا:

{ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ }

وحكى عن النصارى أنهم قالوا:{ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ }

وحكى عن المشركين أنهم قالوا " الملائكة بنات الله "

فيصح أن يكون الضمير فى قالوا عائداً على الفرق الثلاث أو على بعضهم. فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف فى المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال:

{ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ }

أصبح من السائغ فى صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم:

وقوله: { سُبْحَانَهُ } تنزيه له عما هو نقص فى حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد، لاقتضاء الوالدية: النوعية والجنسية والتناسل والافتقار، والتشبيه والحدوث وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

" لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم ".

وسبحانه: مصدر لسبح بمعنى نزه، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه، والأصل: أسبحه سبحانه، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف إلى ضمير المنزه.

وقوله: { بَل لَّهُ مَا فى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ } إضراب عن مقالاتهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد، وشروع فى الاستدلال على بطلانها.

واللام فى قوله: { لَّهُ } للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقى، و (ما) اسم موصول يراد منه الكائنات: ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله.

والمقصود إثبات أن قولهم { ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً } زعم باطل، فإن جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره، أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة. والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التى لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد فى ذاته وصفاته، الباقى على الدوام، كما قال تعالى:

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلاَلِ وَٱلإِكْرَامِ }

وقوله - تعالى - { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ }.

معناه: كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شىء على مشيئته وإرادته: شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء { قَانِتُونَ } بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره فى غيرهم.

وفصلت جملة { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } عن سابقتها، لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله - تعالى -: { لَّهُ مَا فى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ }.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117)

{ بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ } أى: مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء. وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذى ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى -. وخص السماوات والأرض بالإبداع، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال القرطبى: " قوله - تعالى -: { بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ } فعيل للمبالغة. وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر. أبدعت الشىء لا عن مثال، فالله - تعالى - بديع السماوات والأرض، أى منشئهما وموجدهما، ومخترعهما، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام... ".

وقوله: { وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } معناه: وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً. " وكن فيكون، فعلان من الكون بمعنى الحدوث. ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة

على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التى أوردها الضالون حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التى أثاروها حول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)

عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة اليهودى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية.

فالآية الكريمة معطوفة على قوله:

{ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً... }

ومعنى الآية الكريمة. { وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } علماً نافعاً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد - { لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ } إما مشافهة، أو بواسطة الوحى إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التى أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً.

وقد رد الله عليهم بقوله: { كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ } أى: مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفى هذه الجملة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله.

{ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك فى العناد والضلال.

{ قَدْ بَيَّنَّا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } أى: جعلناها بينة واضحة فى ذاتها لمن شأنهم الإخلاص فى طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة.

قال الإمام الرازى: وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن فى أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله { كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ } وحاصل هذا الجواب: أنا قد أيدنا قول محمود بالمعجزات، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت. وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها:

1 - لو كان فى معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجاً.

2 - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

3 - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح فى كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة. فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح فى النبوة.

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد بـ { ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً من هذه الآية للأسباب الآتية:

1 - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.
2 - جملة { كَذَلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ } قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له:{ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً }

وقالوا:{ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً }وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة.

3 - الآية مدنية ومن سورة البقرة التى هى من أوائل ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدنى عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركى العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق.

4 - سبب نزول الآية الذى ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولياً فى هذه الآية.

5 - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التى تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى:

{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذٰلِكَ فَقَالُوۤاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً }

6 - الإمام ابن جرير رجح أن المراد بـ { ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ } النصارى، مستدلا بأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول.

{ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ }

والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتى:

(أ) لأن الآية ليست فى سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هى فى سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم فى أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك، قال تعالى:

{ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتْ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ }

(جـ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذى أورده ابن عباس فى سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب).

هذا وبعد ذلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع فى أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً مهما دخل غيرهم معهم فى السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التى لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم.

ثم ساق القرآن للنبى صلى الله عليه وسلم ما يسلبه ويثبته فقال:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)

قوله: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } معناه: إنا أرسلناك يا محمد بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة، لتبشر بالثواب من آمن وعمل صالحاً، وتنذر بالعقاب من كفر وعصى.

وصدرت الآية الكريمة بحرف التأكيد، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وللتنويه بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجىء بالمسند إليه ضمير الجلالة، تشريفاً للنبى صلى الله عليه وسلم فكأن الله - تعالى - يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك.

وقوله: { بِٱلْحَقِّ } متعلق بأرسلناك. والحق: مأخوذ من حق الشىء، أى: وجب وثبت، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع، ويسمى الدين الصحيح حقاً لاشتماله على الأحكام الصادقة.

وقوله: { بَشِيراً وَنَذِيراً } حالان، والبشير: المبشر، وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به. والنذير: المنذر، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه.

وجملة { وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ } معطوف على جملة { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ }.

والجحيم: المتأجج من النار. وأصحابها: الملازمون لها. والسؤال: كناية عن المؤاخذة واللوم.

والمعنى: لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم

{ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ }

وفى وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر.

وفى هذه الجملة مع قوله: { بَشِيراً وَنَذِيراً } تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون.

ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال:

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)

الملة: الطريقة المسلوكة، ثم جعلت اسما لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة، وقد تطلق على ما ليس حقاً من الأديان المنحرفة أو الباطلة، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام - أنه قال:

{ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُمْ بِٱلآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }

وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - " مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتهما لدين الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى فى قلة الانتفاع به.

ومعنى الغاية فى قوله: " حتى تتبع ملتهم الكناية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه صلى الله عليه وسلم ملتهم وكان اتباع النبى صلى الله عليه وسلم لملتهم مستحيلا، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلا، فالجملة الكريمة مبالغة فى الإقناط من إسلامهم، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم الجواب فقال: { قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ }.

وهدى الله: دينه والهدى، بمعنى الهادى إلى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة. أى: ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهدى الحقيقى لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء.

وإيراد الهدى معرفاً بأل مع اقترانه بضمير الفصل " هو " يفيد قصر الهداية على دين الله، وينفى أن يكون فى دين غير دين الله هدى. وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يطمع أهل الكتاب فى أن يتبع ملتهم؟

ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال: { وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }.

اللام فى قوله: { وَلَئِنِ } تشعر بأن فى الجملة قسماً مقدراً روعى فى صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجد من الله ولياً ولا نصيراً.

والأهواء: جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات فى أنفسهم. والعلم: الدين: وسمى علماً لأنه يعلم بالأدلة القاطعة.

والولى: القريب والحليف. والنضير: كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسط إليه يده بسوء.

والمعنى: ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة، بعد الذى جاءك من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة، مالك من الله من ولى يلى أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه.

وإنما أوثر خطابه صلى الله عليه وسلم بذلك ليدخل دخولا أولياً من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكاً بولايتهم، وطمعاً فى نصرتهم.

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين، فقال:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)

أى: يقرءونه قراءة حقة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضى عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب، كالجمل الواردة فى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تدبره يستدعى اتباعه والعمل به.

وجملة: { يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ } حال من الضمير (هم) أو من الكتاب وهذه الحال من قبيل الأحول التى تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه. وهى التى تسمى بالحال المقدرة أى: مقدراً وقوعها بعد وقوع عاملها.

والمراد بالذين أوتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب. والمراد بالكتاب التوارة والإنجيل. أو هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والكتاب: القرآن.

وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن، فيكون الضمير فى يتلونه القرآن.

وقوله: { أُوْلَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } خبر عن قوله: { ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ }.

وفى ذكر الإشارة ووضعه فى صدر الجملة المخبر بها، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم.

وفى هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، فكأن الآية التى معنا تقول: { ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ } وكان من حالهم أن قرءوه حق قراءته، يؤمنون به إيمانا لا ريبة فيه، بخلاف المعاندين المحرفين للكلم عن مواضعه.

ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين بكتبه فقال: { وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ }.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وانكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون فى الآخرة، إذ سيفوتهم ما أعده الله لعباده من نعيم دائم، ومقام كريم.

وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندائهم بأحب أسمائهم إليهم، فقد اختتمه - أيضاً - بهذا النداء فقال:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123)

ففى هاتين الآيتين تكرير لتذكير بنى إسرائيل بما سبق أن ذكروا به فى صدر الحديث معهم فى هذه السورة، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشيء تقتضى تكرار الأمر به إبلاغا فى الحجة وتأكيداً للتذكرة.

قال القاضى: ولما صدر القرآن قصة بنى إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم، مبالغاً فى النصح وإيذاناً بأنه فذلكة القضية، والمقصود من القصة.

هذا وبعد أن ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة نعمه على بنى إسرائيل، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بكفر وعناد، ويأتون منكرات فى الأقوال والأعمال، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ، وتذكير بيوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئاً، بعد كل ذلك واصل القرآن حديثه عن قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله، فقال - تعالى -:-

۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

الابتلاء: الاختبار. أى. اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهى، ومعنى اختبار الله - تعالى

- لعبده، أن يعامله معاملة المختبر مجازاً، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه - تعالى - لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - تارة يختبر عباده بالضراء ليصبروا. وتارة بالسراء ليشكروا وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها.

وفى إسناد الابتلاء إلى الرب إشعار للتالى أو للسامع بأنه ابتلاه بما ابتلاه به تربية له، وتقوية لعزمه، حتى يستطيع النهوض بعظائم الأمور.

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة.

قال ابن جرير: " ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له، ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات، أنها الأوامر التى كلفه الله بها، فأتى بها على أتم وجه ".

وقوله: { فَأَتَمَّهُنَّ } أى أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تاماً يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله:{ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ }
وجيء بالفاء فى { فَأَتَمَّهُنَّ } للدلالة على الفور والامتثال. وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين.

وفى إجمال القرآن لتلك الكلمات التى امتحن الله بها إبراهيم، وفى وصفه له بأنه أتمهن، إشعار بأنها من الأعمال التى لا ينهض بها الا ذو عزم قوى يتلقى أوامر ربه بحسن الطاعة وسرعة الامتثال.

وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله ابراهيم.

وجملة { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } مستأنفة لبيان ما من الله به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله معاملة المختبر له، إذ كلفه بأمور شاقة فأحسن القيام بها.

جاعلك: من جعل يعنى صير.
والإمام: القدوة الذى يؤتم به فى أقواله وأفعاله. والمراد بالإمامة هنا: الرسالة والنبوة، فإنهما أكمل أنواع

الإمامة، والرسول أكمل أفراد هذا النوع، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - رسولا يقتدى به الناس فى أصول الدين ومكارم الأخلاق.

وقال: { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } ولم يقل: " إنى جاعلك للناس رسولا، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فإن إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى مصر وكان فى جميع منازله أسوة حسنة لغيره.

وقد مدح القرآن إبراهيم فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى:

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }

وجملة { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي } واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكأنه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان الجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضاً.

أى: قال إبراهيم: واجعل يا رب من ذريتى أئمة يقتدى بهم.

وقد رد الله - تعالى - على قول إبراهيم بقوله: { قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ }.

وإنما قال إبراهيم ومن ذريتى ولم يقل وذريتى، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى: قال الله لإبراهيم: قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: { جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }.

وفى هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى -:{ وَجَعَلْنَا فى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ }

ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منه قد تنالهم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء.

قال - تعالى -:

{ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ }

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام، وعن قصة بنائه، وعن الدعوات الخاشعات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال:

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

قوله - تعالى -: { وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنا } معطوف على قوله - تعالى -:
{ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ }

وجعلنا: بمعنى صرنا.
والبيت: المقصود به الكعبة، إذ غلب استعمال البيت فيها حتى صار اسما لها.

ومثابة للناس: مرجعاً للناس يرجعون إليه من كل جانب، وهو مصدر ميمى من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه. فهم يثوبون إليه ثواباً وثوبانا، أو معاذا لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره.

والأمن: السلامة من الخوف، وأمن المكان: اطمئنان أهله به، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه فالبيت مأمن، أى موضع أمن. وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمنا ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن.

وكذلك صار البيت الحرام محفوظاً بالأمن من كل ناحية، فقد كان الناس فى الجاهلية يقتتلون ويعتدى بعضهم على بعض من حوله، أما أهله فكانوا فى أمان واطمئنان. قال تعالى

{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ }

وقال - تعالى -:{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع حقاً ولا يعطل حداً، وزادت فى تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها.

قال الإمام ابن كثير: " ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة للناس. أى: جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطراً ولو ترددت إليه فى كل عام استجابة من الله - تعالى - لدعاء خليله إبراهيم فى قوله تعالى:

{ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ }

ويصفه - تعالى - بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له:

{ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } الاتخاذ: الجعل، تقوم اتخذت فلاناً صديقاً أى: جعلته صديقاً.
والمقام فى اللغة: موضع القدمين من قام يقوم، ومقام إبراهيم: هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بناء الكعبة لما ارتفع الجدار، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم.

ومعنى اتخاذ مصلى منه: القصد إلى الصلاة عنده. فقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم <u>عن جابر بن عبد الله " أن رسول الله صلي الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين " ".</u>

ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها لعبادة الله تعالى.

قال الإمام ابن كثير: " وقد كان هذا المقام - أى الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر على يمين الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة.. ثم قال: وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر - رضى الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة:

ثم قال - تعالى -: { وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ }.

عهدنا: أمرنا وأوحينا، و { أَن } مفسرة المأمور به أو الموصى به المشار إليه بقوله: { عَهِدْنَآ } أى: أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى.

وأضاف - سبحانه - البيت إليه للتشريف والتكريم ومعنى تطهيره: صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك، فالمقصود تطهيره من كل رجس حسى ومعنوى.

والطائفين: جمع طائف من طاف يطوف طوفاً وطوافاً إذا دار حول الشىء والمراد بهم: المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة.

والعاكفين: جمع عاكف، من عكف على الشىء عكوفاً إذا أقام عليه ملازماً له، والمراد بهم: المقيمون فى الحرم بقصد العبادة، ويدخل فى العبادة مدارسة العلوم الدينية وما يساعد على فهمها.

والركع السجود: الركع جمع راكع، والسجود: جمع ساجد.

والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، فمعنى " والركع السجود " المصلون. فالآية الكريمة جمعت أصناف العابدين فى البيت الحرام: وهم الطائفون وإن لم يكونوا مقيمين، كمن يأتون لحج أو عمرة ثم ينصرفون.

والعاكفون الذين يقيمون فى الحرم بقصد الإكثار من العبادة فى المسجد الحرام. والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل.

ولم يعطف السجود على الركع، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

ثم ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً } أى: أضرع إليك يا إلهى أن تجعل الموضع الذى فيه بيتك مكانا يأنس إليه الناس، ويأمنون فيه من الخوف، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان.

والمشار إليه بقوله: { هَـٰذَا } مكة المكرمة. والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة.

والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد، وإنما يلحقان أهل البلد.

قال الإمام الرازى: وإنما قال هنا { بَلَداً آمِناً } على التنكير، وقال فى سورة إبراهيم

{ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِناً }

على التعريف لوجهين:

- الأول: أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، كأنه قال: اجعل هذا الوادى بلداً آمناً.
  والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذى صيرته بلداً ذا أمن وسلامة.

- الثانى: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً، فقوله: { ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً } تقديره: أجعل هذا البلد بلداً آمناً كقولك: كان اليوم يوماً حاراً، وهذا إنما تذكره للمبالغة فى وصفة بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة فقوله: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا معناه: اجعله من البلدان الكاملة فى الأمن. وأما قوله: { رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً } فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة.

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد حكاها القرآن فى قوله:

{ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ }.

أى: كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا لبلد بلداً آمنا. أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويغنيهم من الاحتياج إلى غيرك.

وقوله: " ارزق " مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

والثمرات: جمع ثمرة، وهى ما يحمله شجر أو زرع أو غيره من النبات. وإنما طلب ابراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدا آمناً، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلك بنفوس مستقرة.

وقال فى دعائه: { مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ } لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا أتبع قوله: { وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ } بقوله: { مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } على وجه البدل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا { مَنْ آمَنَ } هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هى خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدباً مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال:{ وَمِن ذُرِّيَّتِي }

فقال:{ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ }

أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم.

واقتصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فى التعبير عن المؤمنين لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسله وملائكته.

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال: { قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ }.

الضمير فى { قَالَ } يعود إلى الله - تعالى - ومن فى قوله { وَمَن كَفَرَ } منصوب بفعل مقدر دل عليه " فأمتعه ". والمعنى: قال الله وأرزق من كفر وايراد المتكلم قولا من عنده معطوفاً على قول متكلم آخر

مألوف فى اللغة العربية، ويحسن موقعه عندما يقتضى المقام إيجازاً فى القول، ولولا هذا العطف لكان المعنى متطلباً لأن يقال: قال الله أرزق من آمن ومن كفر.

{ فَأُمَتِّعُهُ }: من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به. و { قَلِيلاً }: وصف لمصدر محذوف فى النظم، والمعنى: أمتعه تمتيعاً قليلا. ووصف التمتع فى الدنيا بالقلة، لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع.

و { أَضْطَرُّهُ } أى الجئة وأسوقه بعد متاعه فى الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه وجملة " ثم اضطره إلى عذاب النار " احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا.

{ وَبِئْسَ } فعل يستعمل لذم المرفوع بعده، وهو ما يسميه النحاة بالمخصوص بالذم، ووردت هنا لذم النار المقدرة فى الجملة، والمعنى: بئس المصير النار. أى أنها مصير سىء كما قال تعالى فى آية أخرى.

{ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً }

وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى:

{ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ }

ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة فى الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء. وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختيارياً حتى ينساق الإنسان من طريق النظر فى أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون.

ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)

القواعد: جمع قاعدة، وهى أساس البناء الموالى للأرض، وبها يكون ثبات البناء. ورفعها: إبرازها عن الأرض بالبناء عليها. والمراد بالبيت الكعبة.

والتقبل: القبول، وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يثيب عليه.

والمعنى: واذكر يا محمد ما صدر من الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان يرفع قواعد الكعبة إلى ويقولان: يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا، إنك أنت السميع العليم.

وتصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرها مظهر من مظاهر خضوعهما، وإجلالهما لمقامه، والخضوع له - سبحانه -، وإجلال مقامه من أسنى الآداب التى تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة.

وعبر بالمضارع فقال: { وَإِذْ يَرْفَعُ } مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه فى صورة الحاضر فى الواقع لأهميته.

وختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، ليؤكدا أن رجاءهما فى استجابة دعائهما وثيق، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول. لأن من كان سميعاً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين فى طاعته غير بعيد.

ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات، التى توجه بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال:

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

{ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ }:

مسلمين من الإسلام، وهو الخضوع والإذعان، وقد كانا خاضعين لله مذعنين فى كل حال، وإنما طلبا الثبات والدوام على ذلك، والإسلام الذى هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد، وتحرى ما رسمه الشارع فى العبادات والمعاملات، والإخلاص فى أداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقوله: { وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } معناه: واجعل يا ربنا من ذريتنا أمة مخلصة وجهها إليك، مذعنة لأوامرك ونواهيك.

ومن (من) للتبعيض، أو للتعيين كقوله:

{ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ }

وإنما خص الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعاً، والدعاء لهم بالصلاح مرغب فيه شرعاً، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى -:

{ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً }

{ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } أى: علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا، كالطواف والسعى والوقوف. أو متعبداتنا التى تقام فيها شرائعنا، كمنى، وعرفات، ونحوهما.

والمناسك: جمع منسك - بفتح السين وكسرها - بمعنى الفعل وبمعنى الموضع من النسك - مثلثة النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة والطاعة، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعى وغيرهما.

{ وَتُبْ عَلَيْنَآ } تسند التوبة إلى العبد فيقال: تاب فلان إلى الله ومعناها الندم على ما لابس من الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظالم إن استطاع، أو نية ردها إن لم يستطع وتسند إلى الله فيقال: تاب الله على فلان، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة، أو قبولها منه. فمعنى { وَتُبْ عَلَيْنَآ } وفقنا للتوبة أو تقبلها منا.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدى إلى خطأ فى الاجتهاد، وعلى أحد هذين الوجهين، تحمل التوبة التى يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها.

{ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ } التواب: كثير القبول لتوبة المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضى عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان.

وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة فى قولهما { وَتُبْ عَلَيْنَآ } ولوحا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان، فكأنهما قالا: تب علينا وارحمنا، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى.
ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التى فيها خيرهم فى الدنيا والآخرة، فقالا - كما حكى القرآن عنهما:

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

الضمير فى قوله: { مِّنْهُمْ } يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة فى قوله: { وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }.

والرسول: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه: وتلاوة الشىء: قراءته والمراد بقوله تعالى: { يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ } يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفى هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع.

والآيات: جمع آية، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله، وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عنه، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا بتلاوتها، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجهاً مشرقا من وجوه إعجازها.

والكتاب: القرآن، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب.

والحكمة: العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به. ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التى تنتظم أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب، وتنفتح لهم طرق التفقه فى أسرار الدين ومقاصده.

ويزكيهم: أى يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل ما لا يليق التلبس به ظاهراً أو باطناً. يقال: زكاة الله، أى طهره وأصلحه، ومنه زكاة المال لتطهره بها، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة، يقال. زكا الزرع زكاء وزكوا، أى نما.

والمعنى: ونسألك يا ربنا أن تبعث فى الأمة المسلمة، أو فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه، ويرشدهم إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب، كما يهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك - والتى بها يتم التفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده، والتى يكمل بها العلم بالكتاب إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم.

أى القادر الذى لا يغلب على أمره، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة، ومن كان قادراً على كل ما يريد، عليما بوجوه المصالح، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال.

وقد جاءت ترتيب هذه الجمل فى أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذى تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به فى الظاهر، أو الباطن.

وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة الرسول فى ذريتهما فيكون أمر الإيمان قريبا منهم، فإن نشأته بينهم، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة، وكل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريمين، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً.

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه دعوة إبراهيم، فقال: " أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين "

ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضع الذى هو ملة إبراهيم فقال:

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

قوله تعالى: { وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ } معناه: لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

يقال رغب فى كذا إذا أراده، ورغب عن كذا إذا كرهه وانصرفت عنه نفسه والملة فى الأصل الطريقة، وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام وسفه نفسه امتهنها واستخف بها.

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى: { وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فى ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ } أى: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد فى سفهه وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التى رفعته إلى المنازل العليا فقال تعالى

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)

{ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ } أى: اصطفى الله - تعالى - إبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه فى كل حال فبادر إلى الامتثال

وقال { أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ } أى: أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعاً. كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول فى قوله تعالى:

{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }

وبعد أن بين الله - تعالى - إن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا فى نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى. فقال - سبحانه -:

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132)

الضمير فى " بها " يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك فى قوله تعالى: { وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ } والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال كل منهما لأبنائه: يا بنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذى لا يقبل الله دينا سواه { فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ } أى: فاثبتوا على الإسلام. واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف.

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التى أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

روى أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة.

والمعنى: ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ { مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي } فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التى أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكى يسعدوا فى دنياهم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا: { نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }.

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهى ملة لا تثليث فيها ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى:

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

الإشارة بـ { تِلْكَ } إلى إبراهيم وبنيه، أى أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم فى الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته.

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة فى خلقه وهى أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبنى إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذى بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفى القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذى دعا اليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم،

فنوح قال لقومه:{ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ }

وموسى قال لقومه:{ يٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوۤاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }

والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام -:{ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته وقالوا:{ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ }

وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التى أرشدت إلى أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة. وهى أن ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله فى أصول الدين وكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التى بعث الله لها رسولا من لدنه كما قال تعالى

{ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً }

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً فى الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمداً صلى الله عليه وسلم من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف.

ويعجبنى فى هذا المقام قول فضيلة أستاذنا الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله : (يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نفضاً لها، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثانى من مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً، وطعاماً نشوياً خفيفاً، وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق فى علاج الحالة التى عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين.

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات.

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و(تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها. وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقتل). (لا تسرق) فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجىء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيراً تجئ شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين فى نسق واحد

{ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ }

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير **فقال: " مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".**

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هى فى الأصول والكليات، لا فى الفروع والجزئيات.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: " قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك،

فأنزل الله - عز وجل - { وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }.

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق. وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم، بل الحق فى أن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه.

وقوله تعالى: { وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ } حكاية لما زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى فى اتباع ملتهم.

و(أو) للتنويع، أى قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا. وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا،
إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: { وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ } لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى:

{ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ }

ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الرد الملزم لهم، فقال تعالى:
{ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }.

الملة: الدين، والحنيف فى الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التى كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة.

قال الإمام الرازى: " لأهل اللغة فى الحنيف قولان:

- الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج أحنف تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ سليم وللمهلكة مفازة، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه فى شىء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظى.

- الثانى: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذى يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها. وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أى مال إليه، فقوله: { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } أى: مخالفاً لليهود والنصارى.

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى فى أن نتبع ملتكم، بل الهدى فى أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذى ما كان من المشركين بأى صورة من صور الشرك ".

وقوله تعالى: { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ } أى: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً. وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى، لأن حرف (بل) يؤتى به فى صدر الكلام لينفى ما تضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هى قول أهل الكتاب { وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ } فجاءت بل بعد ذلك لتنفى هذا القول، ولتثبت أن الهداية إنما هى فى اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفى اتباع من سار على نهجه وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وفى هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }. { وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ } دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفى ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هى معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

قال الإمام الرازى - ما ملخصه: فى الآية الكريمة جواب إلزامى لهم وهو قوله تعالى: { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى فى ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر. فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - فى أصول الدين.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحى الإلهى الذى أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى:

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

أى: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية فى اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله، وبالقرآن الكريم الذى أنزله إلينا { وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ } ، وبالتوراة التى أنزلها الله على موسى وبالانجيل الذى أنزله الله على عيسى، ونحن فى تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة.
مذعنون له بالعبودية.

قال الإمام الرازى: " فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً فى زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق.

وقوله تعالى: { قُولُوۤاْ آمَنَّا بِٱللَّهِ } خطاب للمؤمنين.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - وكانوا اثنى عشر سبطاً كما قال تعالى:

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً }

والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحى على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبى: والأسباط: ولقد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد من هم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط " بالتحريك " وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر: الواحد سبطة، ويبين لك هذا ما روى <u>عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ".</u>

وقوله تعالى: { وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ } معناه: وآمنا - أيضاً - بالتوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذى أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم فى نبوتهم.

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله حكاية عنه

{ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ }

وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهى الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفى الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى: { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وفعلكم هذا فى حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء.

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتموهم إليه معشر المسلمين، فقد أصابوا الهدى، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون فقال تعالى:

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

والفاء التى صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها. لأن قول المؤمنين { آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } إلخ.

من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة، ويستميل النفوس الشاردة، لبعده عن التعصب والعناد، لأنه الحق الذى تؤيده العقول السليمة، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم.

وقوله تعالى: { فَقَدِ ٱهْتَدَواْ } ترغيب لهم فى اتباع الحق الذى اتبعه المؤمنون، أى: فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا.

وكلمة: (مثل) فى الآية الكريمة معناها، نفس الشىء وحقيقته. المراد فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا، ومنه قول العرب: " مثلك لا يبخل " والمراد أنت لا تبخل.

ويرى بعض المفسرين أن كلمة " مثل " هنا على حقيقتها وهى الشبية والنظير، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، وأنها لا تقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به.

قال الإمام القرطبى: " المعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا ".

وقال ابن جرير: فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه، فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل: (مر عمرو بأخيك مثل ما مررت به) يعنى ذلك (مر عمرو بأخيك مثل مرورى به) والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله:
{ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ } إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمن به ".

وقوله تعالى: { وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ } بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق، ووعد من الله - تعالى - للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر عليهم، والعصمة من شرورهم.

والشقاق: المنازعة والمخالفة وأصله من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه.

وقيل: إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه.

والمعنى: وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية ميلهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعراضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك، وما داموا هم كذلك فسيقيك الله شرهم، وينصرك عليهم، فهو سميع لما يقولونه فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم، وقطع دابرهم.

وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله: { فَإِنَّمَا هُمْ فى شِقَاقٍ } مبالغة فى وصفهم بالشقاق حيث جعله مستوليا عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه.

ورتب قوله: { فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ } على قوله { فَإِنَّمَا هُمْ فى شِقَاقٍ } تثبيتاً للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب فى مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم، فبشر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى. وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم.

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده، فنصر نبيه صلى الله عليه وسلم عليهم وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم، وقتل من لا بد من قتله بسبب خيانته وغدره. فالآية الكريمة قد تضمنت وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى:

صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهى فى أصل اللغة. الحالة التى يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بألوان معينة واستعملت الصيغة فى الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهى قوله تعالى قبل ذلك { قُولُوۤاْ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ }. الخ الآية. وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلا، لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوغ. ويقال: تصبغ فلان فى الدين إذا أحسن دينه وتقيد بتعاليمه تقيداً تاماً.

وقوله: { صِبْغَةَ ٱللَّهِ } هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم (آمنا) فإنه فى معنى صبغنا الله بالإيمان، وكأنهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته. وإيراد المصدر تأكيدا لفعل يوافقه فى المعنى ويخالفه فى اللفظ معهود فى الكلام البليغ.

قال القاضى: قوله تعالى { صِبْغَةَ ٱللَّهِ } متعلق بقوله: { قُولُوۤاْ آمَنَّا بِٱللَّهِ } إلى قوله: { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صيغة الله، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذى اختاره الله وبين الدين الذى اختاره المبطلون ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذى الحس السليم ".

والاستفهام فى قوله تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً } للإنكار والنفى والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال، فهى صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطه له.
بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصيغة البشرية، التى تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً } يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون دينا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوباً يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين لدين الله فى الحسن، كما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه.

وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمحة والعادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: { وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ } عطف على آمنا بالله فى قوله تعالى: { قُولُوۤاْ آمَنَّا بِٱللَّهِ } والمعنى: قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هى صبغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون فى ديننا وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يزيد فى تذكيرهم ودحض حجتهم فقال تعالى:

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك { كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ } وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند الله دون دينك، قل لهم: أتجادلوننا فى دين الله وهو ملة الإسلام التى بعثنى به للعالمين هدى ورحمة، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحياؤه، والحال أنه - سبحانه - هو { رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } أى خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال.

وقوله تعالى: { وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } معناه: لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب، فكما أننا نتساوى معكم فى أن الله ربنا وربكم فكذلك نتساوى معكم فى استحقاق الجزاء على الأعمال التى نعملها، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيراً من أعمالكم، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله في تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه بإكرامهم بالنبوة.

فقوله تعالى: { وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق

لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العباد إلى الله - تعالى - واحدة هو ربهم وهم عباده، والتفاضل فى المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ويختص بوحيه من يراه أهلا لذلك، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى العربى، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح فى الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: { وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة، والمعنى، ونحن - يا معشر المسلمين - لربنا موحدون، نخلص لله العبادة والعمل، ولا نشرك معه آلهة أخرى، أما أنتم فقد أشركتم وضللتم فقال بعضكم:{ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ }....وقال بعضكم{ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ }

فنحن أهدى منكم سبيلا، وأقوم قيلا.

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنباً لنفور المخاطبين من سماع خطابهم، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى

{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }

كما أنهم لم يقولوا: ونحن مخلصون وأنتم مخطئون، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم، وفى ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله، فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة فى أمر أو أمور، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر، يومئ إلى أن هذا الأمر الذى أثبته لنفسه خاصة معدوم فى أولئك الجماعة.

فمعنى الجملة: ونحن مخلصون فى أعمالنا لله وحده، ولم نخلطها بشىء من الشرك كما فعل غيرنا.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب فى دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى فقال تعالى:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

وقوله تعالى: { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ } حرف " أم " فيه معادل للهمزة فى قوله تعالى فى الآية السابقة { أَتُحَآجُّونَنَا فى ٱللَّهِ } على أحد الوجوه بمعنى أى الأمرين تأتون؟ المحاجة فى حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين فى هذه الآية والمراد من الاستفهام عنهما إنكارهما معاً، إنكار حجاجهم فى دين الله، وإنكار قولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى.

فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم: لا تجادلوننا فى دين الله بغير حق، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التى لا سند لها من عقل أو نقل.

وقوله تعالى: { قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ } معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين فى الآية كانوا هودا أو نصارى: إن ما زعمتوه من أن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والانجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعا، هكذا أخبرنا الله فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله اعلم، فإذا لزمهم هذا القول: قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه.

وقوله تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ } معناه لا أحد أشد ظلماً ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هوداً أو نصارى.

ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة، فقال تعالى: { وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }.

الغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية وسيحاسبهم عليها حسابا عسيراً، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقاباً أليماً، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - فى ختام الآيات - من التمادى فى الكفر والمعصية، انكالا على انتسابهم لآباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين، فقال تعالى:

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

{ تِلْكَ } إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط و (الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين (قد خلت) أى مضت وانقرضت.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية فى ملتهم وأن إبراهيم وآله كانوا هوداً أو نصارى، قل لهم: إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم فعليكم أن تسلكوا طريق الايمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها، كما بين ذلك قوله تعالى:{ كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهَينٌ }

فالمقصد الأول الذى ترمى إليه الآية الكريمة، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة اعتماداً منهم على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأمانى الكاذبة والأفكار الفاسدة وقد جاء فى الحديث الشريف " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه "

وكأن الآية تقول لأهل الكتاب فى تأكيد: إن أمامكم ديناً دعيتم إلى اتباعه، واقترنت دعوته بالحجة فانظروا فى دلائل صحته، وسمو حكمته، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن، فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو فى حال تسليمها لكم، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح، وعلى حسب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى فى إتباع ملتهم، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافترائهم وأرشدتهم إلى الدين الحق، ودعتهم إلى الدخول فيه، ووبختهم على المحاجة فى دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتماداً منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئاً يوم الدين.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّـهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن فريقاً من الناس الذين خفت أحلامهم وضعفت عقولهم وعدلوا عما ينفعهم إلى ما يضرهم، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ما صرفهم عن القبلة التى كانوا عليها، وهى بيت المقدس.

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت، أى فائدة فى الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه ".

والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركى العرب.

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق، وجحدوه، وأنكروا نبوة النبى صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه فى رسالته.

وقد صرح البخارى - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاءهم اليهود،
فقد روى عن البراء بن عازب قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه إلي الكعبة، فأنزل الله - تعالى - { قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ } فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم، فقال تعالى: { قُل للَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }.

أى قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله ملكاً وتصرفاً وهى بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لا ترجيحاً لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق، فيوجه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

- ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّـهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }.

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلتكم - أيها المسلمون - وسطاً لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة للناس، والأمن لهم، جعلناكم - أيضاً - { أُمَّةً وَسَطاً } أى: خياراً عدولا بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التى تتوجهون إليها فى صلواتكم، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

أخرج البخارى " عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟

فيقول نعم، فيقال لأمته هل بلغكم. فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته " فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله - جل ذكره - { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }.

ثم بين الله - تعالى - الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى:

{ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ }.

أى وما شرعنا التوجه إلى القبلة التى كنت عليها قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر، فنعلم من يتبع الرسول ويأتمر بأوامره فى كل حال ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شيء، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهداً فى العيان، إذ تعلق الشيء واقعاً فى العيان، هو الذى تقوم عليه الحجة، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال لنعلم ولم يزل عالماً بذلك؟ قلت؛ معناه لنلعمه علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلا، ونحوه{ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ }

وقيل ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل معناه. ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى -:{ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ }

فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم يقع التمييز به ".

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة فى نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى: { وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ }.

أى: إنما شرعنا لك - يا محمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكمية ليظهر حال من يتبعك ويطيعك فى كل حالة ممن لا يطيعك، وإن كانت هذه الفعلة - وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة، إلا على الذين خلق الله الهداية فى قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة

جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد

وقوله - تعالى -: { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ... }.

بشارة عظيمة للمؤمنين، وجواب لما جاشت به الصدور، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين فى الفترة التى سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة.

- فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب - رضى الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما تقول فيهم، فأنزل الله - تعالى - { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }.

- وقال ابن عباس: كان رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم: أسعد بن زرارة، وأبو أمامة... وأناس آخرون فجاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول الله: مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا، فأنزل الله - تعالى - { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }.

- وروى أن حيى بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه فقالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }.

والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التى قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم خاطب الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده بأن القبلة التى سيؤمر بالتوجه إليها هى التى يحرص عليها ويرغب فيها.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير: قال على بن أبى طلحة قال ابن عباس: كان أول ما نسخ فى القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله - تعالى - { قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ }.

والمعنى: قد شاهدنا - يا محمد - وعلمنا تردد وجهك، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحى عليك، وتوقعاً لما ألقى فى روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعياً منك وراء استمالة العرب إلى الدخول فى أحضان الإسلام، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون: إنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها

{ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ }.

أى: فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته.

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها. فقال تعالى:{ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ }.

أى: وحيثما كنتم وأينما وجدتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه. وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأول خاصاً بالنبى صلى الله عليه وسلم ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرا له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك آكد وأبلغ.

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما.

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق. وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها. فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع.

وقد سقنا فى مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتحويل إلى الكعبة استداروا إليها وهم فى صلاتهم فجعلوها قبلتهم.

ومما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء " عن نويلة بنت مسلم أنها قالت.

" صلينا الظهر - أو العصر - فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أى بيت المقدس - فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت

الحرام فتحول النساء مكان الرجال. والرجال مكان النساء. فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام. فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أولئك رجال يؤمنون بالغيب " ".

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذى لا ريب فيه فقال تعالى: { وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }.

أى: وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرافكم عن بيت المقدس، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق؛ لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله، أو أنه يصلى إلى القبلتين، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم، وما الله بغافل عن أعمالهم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حساباً عسيراً ".

- ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وعنادهم، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بكل آية. فقال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

المعنى: ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس فى الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما فى كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفى هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبى المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم فى رجوع النبى صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس يتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب فى القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى: { وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ } أى: ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون فى باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: { وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ }.

أى: لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - <u>**على سبيل الفرض، والتقدير**</u> من بعد وضوح البرهان وإعلامى إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذاً لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى.

فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثه عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير فى صورة الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيداً للوعيد والتحذير، فكأنه يقول:

⬅ لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندى، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه فى الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين.

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟.

قلت: كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانت بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة ".

- ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

أى: أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية فى أن كلا متهما يقين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابن كثير: " يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا كما جاء فى الحديث "

<u>أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صبى صغير " إبنك هذا "؟ قال نعم يا</u>

رسول الله أشهد به، قال: " أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه "

- ويروى عن عمر أنه قال " لعبد الله بن سلام " أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ولدك. قال نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته، وإني لا أدرى ما كان من أم ولدى، فقبل عمر - رضى الله عنه - رأسه ".

أى: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على حق فى كل شئونك ليتمادون فى إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم فى الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذى لا شك فيه.

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

أى: اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذى جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم به، أو فى الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيّها صلى الله عليه وسلم إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم.

وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: " أوكان النبى صلى الله عليه وسلم شاكا فى أن الحق من ربه أو فى أن القبلة التى وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك فى ذلك فقيل له: { فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ }. قيل: ذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه:

{ يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلاَ تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ }ثم قال{ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } فخرج الكلام مخرج الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم والنهى له. والمراد به أصحابه المؤمنون به.

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير; ونحن - في بلاهة منقطعة النظير - نروح نستفتي المستشرقين - من اليهود والنصارى والشيوعيين - في أمر ديننا، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا، وسيرة أوائلنا; ونرسل

إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير.

- ثم قال تعالى:

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّـهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

أى: ولكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها فى عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله - تعالى - وعداً لمن يطيع أمره، ووعيداً لمن ينصر عن الخير. فقال - تعالى -: { أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً }.

أى: فى أى بقعة يدرككم الأجل، وتموتون فيها، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة. لتقفوا بين يديه للحساب، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شيء، وما دام الأمر كذلك، فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم، وحافظوا على قبلتكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر والعناد.

ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام فى حالتى السفر أو الحضر. فقال - تعالى -:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

أى: ومن أى موضع خرجت وإلى أم مكان آخر سرت، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام، وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذى لا شك فيه عند ربك، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به، وينهاكم عنه، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم، ولا بغافل عنها، ولكنه محصيها عليكم، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ }.

أى: ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

وتلك هى المرة الثالثة التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى الأمر تأكيده فى نفوس المؤمنين حتى يستقر فى مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

- الزموا هذه القبلة لأنها هى القبلة التى ترضونها وترغبون فيها وطالما تمنيتموها
- والزموها - أيضاً - لأنها هى القبلة التى لن تنسخ بعد ذلك.
- والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين، وغيرهم من المعاندين والخاسرين.

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام فى هذا الآية الكريمة بحكم ثلاث.

أولها: قوله تعالى: { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي } والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى عليك - أيها النبى - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس. إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول.

وقوله تعالى: { إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ } استثناء من الناس، والمعنى:

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حباً لدين قومه، واشتياقاً لمكة، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ولا تقيموا لما يشاغبون به فى أمر القبلة وغيره وزناً، فإنى كفيل أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم، فأنتم، أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره، ففى الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل -.

وقد أحسن صاحب الكشاف فى شرحه للجملة الكريمة، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال:

{ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ } استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله، فإن

قلت: أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟.

قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟

قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى ترككم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم وإسماعيل أبى العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة، حين يقولون بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم ".

وثانيها: قوله تعالى: { وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ } أى: ولو وجوهكم شطر المسجد الحرام { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ } ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى -: { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ }.

وثالثها: قوله - تعالى - { وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون } أى: ولكى ترشدوا للصواب فى كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهى قوله تعالى: { وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ }.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم فى هذه المسألة.

خامساً: هذا، وفى ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال الخامس، وهو: لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول:

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان، وكرر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره، وساق وجوهاً من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها.

والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام. كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال بذلك كثير من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، فاقتضى الأمر بسط الحديث فى مسألة القبلة ليزدادوا إيماناً على إيمانهم.

ولأن هذا التحويل - أيضاً - جاء على خلاف رغبة اليهود، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين فى التوجه إلى بيت المقدس، لأنه قبلتهم، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام، اتخذوا منه مادة للطعن فى صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة، وسلكوا لبلبلة أفكار المسلمين كل وسيلة.

فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة، ومباين للعقول، فلا يقع فى الشرائع الإلهية، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة.

ويبدو أن شغبهم هذا، كان له آثاره عند ذوى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأناً غير شأن بقية الأحكام الفرعية، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضاً، ومدعماً بالأدلة والبراهين، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة، فلقد قرر وكرر، ووعد وتوعد، ووضح وبين، ليدفع كل شبهة، وليجتث كل حجة، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين فى العلم، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم فى مكان سحيق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جليلة أخرى وهى نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى -:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

قوله - تعالى -: { كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ }.. إلخ متصل بما قبله، والكاف للتشبيه ، والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتى عليكم إتماماً مثل إتمام نعمتى عليكم بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم فيكم، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا{ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ... }

وقيل إن قوله - تعالى -: { كَمَآ أَرْسَلْنَا }.. إلخ متصل بما بعده، فتكون الكاف للمقابلة، أى: كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فلا منى وكرماً، فاذكرونى بالشكر عليها أذكركم برحمتى وثوابى.
وقوله: { فِيكُمْ } متعلق " بأرسلنا " وقدم على المفعول تعجيلا بإدخال السرور

- وقوله: { مِّنْكُمْ } فى موضع نصب، لأنه صفة لقوله: { رَسُولاً } والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب.

وفى إرساله الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر، لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعد له مجد، حيث جعل

- سبحانه - خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته.

- وقوله: { يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا } صفة ثانية للرسول صلى الله عليه وسلم.

والتلاوة: ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق، وأصله من الإتباع ومنه تلاه، أى: تبعه. والمراد من الآيات: آيات القرآن الكريم، وتلاوتها قراءتها، فإن البصير بأساليب البيان العربى يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى الذروة التى كان بها معجزة ساطعة.

وفى هذه الجملة - كما قال الآلوسى - " إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته ":

وعبر بقوله: { يَتْلُواْ } ، لأن نزول القرآن مستمر، وقراءة النبى صلى الله عليه وسلم له متوالية، وفى كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين.

ويجوز أن يراد بالآيات: دلائل التوحيد والنبوة والبعث، وبتلاوتها التذكير بها حتى يزداد المؤمنون إيماناً بصدقها.

- وقوله: { وَيُزَكِّيكُمْ } صفة ثالثة للرسول صلى الله عليه وسلم، أى: ويطهركم من الشرك، ومن الأخلاق الذميمة. وإذا أشرقت النفوس بنور الحق، وتحلت بالأخلاق الحميدة، قويت على تلقى ما يرد عليها من الحقائق السامية.

- وقوله: { وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } صفة رابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

والمراد بالكتاب: القرآن، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه، فهو غير التلاوة، فلا تكرار بين قوله { يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا } وبين قوله { وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ }.

والحكمة: ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال التى جعل الله للناس فيها أسوة حسنة.

قال بعضهم: وقدمت جملة { وَيُزَكِّيكُمْ } هنا على جملة { وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ } عكس ما جاء فى الآية السابقة فى حكاية قول إبراهيم

{ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ }

لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهى منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها، وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. أما فى

دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته فى الخارج، مع ما فى ذلك التخالف من التفنن ".

- وقوله - تعالى -: { وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } صفة خامسة له صلى الله عليه وسلم.

أى: " ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه ممالا طريق إلى معرفته سوى الوحى. ومما لم يكونوا يعملونه وعلمهم إياه صلى الله عليه وسلم وجوه واستنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملا قبل انتهاء عهد النبوة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام فى حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد... فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم الآيات، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، خرج منهم رجال صاروا أمثالا عالية فى العقيدة السليمة، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة، والسياسة الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات.

قال الآلوسى: وكان الظاهر أن يقول: " ويعلمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون " بحذف الفعل " يعلمكم " من الجملة الآخيرة، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد، إلا أنه - تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جنس آخر غير مشارك لما قبله أصلا، فهو تخصيص بعد التعميم مبين لكون إرساله صلى الله عليه وسلم نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين فى أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون ".

ثم أمر الله عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعم فقال:
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

ذكر الشيء: التلفظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره فى الذهن، وهو ضد النسيان وذكر العباد لخالقهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح.
فذكرهم إياه **بألسنتهم** معناه: أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه، ويقرءوا كتابه، مع استحضارهم لعظمته وجلاله.

وذكرهم إياه **بقلوبهم** معناه أن يتفكروا فى الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفى تكاليفه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وأسرار مخلوقاته، لأن هذا التفكر يقوى إيمانهم، ويصفى نفوسهم.

وذكرهم إياه **بجوارحهم** معناه: أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة فى الأعمال التى أمروا بها، منصرفة عن الأفعال التى نهوا عنها،
ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكراً فى قوله:{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوۤاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ... }

وقوله: { فَٱذْكُرُونِيَ أَذْكُرْكُمْ } أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم.

والمعنى: اذكرونى بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عما نهيتكم عنه أذكركم بالرعاية، والنصرة، وصلاح الأحوال فى الدنيا، وبالرحمة وجزيل الثواب فى الآخرة. فالذكر فى قوله { أَذْكُرْكُمْ } مستعمل فيما يترتب على الذكر من المجازاة بما هو أوفى وأبقى، كما أن قوله { فَٱذْكُرُونِيَ } المراد به: اذكروا عظمتى وجلالى ونعمى عليكم، لأن هذا التذكر هو الذى يبعث على استفراغ الوسع فى الأقوال والأعمال التى ترضى الله.

قال صاحب المنار: وقال الأستاذ الإمام: هذه الكلمة - وهى قوله - تعالى - { فَٱذْكُرُونِيَ أَذْكُرْكُمْ } - من الله - تعالى كبيرة جداً، كأنه يقول: إننى أعاملكم بما تعاملوننى به وهو الرب ونحن العبيد، وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه. وهذه أفضل تربية من الله لعباده: إذا ذكروه ذكرهم بإدامة النعمة والفضل، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل ".

هذا، وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل الذكر والذاكرين، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله - تعالى -: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإن ذكرتي في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً. وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعا. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ".

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة: أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده ".

قال الإمام النووى: واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك، بل كل عامل لله - تعالى - بطاعة فهو ذاكر لله - تعالى -.

وقوله - تعالى - { وَٱشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ } معطوف على ما قبله.

والشكر فى اللغة - كما يقول القرطبى - الظهور، ومنه قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف.

وحقيقته: عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن، يقال شكره وشكر له كما يقال نصحه ونصح له.

وأصل الكفر فى كلام العرب الستر والتغطية والجحود، ويستعمل بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال: كفر بالله، ويستعمل بمعنى عدم الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه، فيقال: كفر النعمة أى جحدها وكفر المنعم أى جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر.

والمعنى: اشكروا لى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له، وبأن تطيعونى فى السر والعلن، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم، ونعمى عليكم فاسلبكم إياها،قال - تعالى -:{ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }

وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر، لأن فى الذكر اشتغالا بذاته - تعالى -، وفى الشكر اشتغالا بنعمته، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته. وقوله { وَلاَ تَكْفُرُونِ } تأكيد لقوله { وَٱشْكُرُواْ لِي }.

وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التى { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ }

وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك، كما بين لهم منزلة الشهداء، وعاقبة الصابرين على البلاء فقال - تعالى -:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿١٥٣﴾

كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم. والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والخوف والجوع، ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله في الأنفس، وإقراره في الأرض بين الناس. وربط قلوب هذه الأمة بالله، وتجردها له، ورد الأمور كلها إليه.. كل أولئك في مقابل رضى الله ورحمته وهدايته، وهي وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن، الذي يدرك قيمة هذا الجزاء..

الصبر: حبس النفس على احتمال المكاره، وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع.

والمعنى: يامن آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصى، وعلى احتمال المكاره التى تجرى بها الأقدار، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتذلل للخالق - عز وجل - فإن الإيمان الذى خالط قلوبكم يستدعى منكم القيام بالمصاعب، واحتمال المكاره، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا على كل ذلك إلا بالصبر والصلاة.

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب ،فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين

ولقد استجاب النبى صلى الله عليه وسلم لهذا التوجيه الربانى، وتأسى به أصحابه فى ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد - بسنده - عن حذيفة بن اليمان " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر صلى " أى: إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين.

وافتتحت الآية الكريمة بالنداء، لأن فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم، فإن من شأن الأخبار العظيمة التى تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهئ النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها.

ولعل مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم، أن الله - تعالى - قد أمر بنى إسرائيل فى السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال: { ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلاَةِ } إلا أنه - سبحانه - قال لهم:{ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ }

ليشعرهم بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك فى الآية التى معنا، للإيماء إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك.

وقوله - تعالى -: { إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ } بيان لحكمة الاستعانة بالصبر وهو الفوز والنصر. أى: إن الله مع الصابرين بمعونته ونصره، وتوفيقه وتسديده فهى معية خاصة، وإلا فهو - سبحانه - مع جميع خلقه بعلمه وقدرته.

وهو تعالى معهم، يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويهم، ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمدهم حين ينفد زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق.

وقال - سبحانه -: { إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ } ولم يقل " مع المصلين " لأن الصلاة المستوفية لأركانها وسننها وخشوعها لا تتم إلا بالصبر، فالمصلون بحق داخلون فى قوله - تعالى -: { إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ }.

ولم يقل " معكم " ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفا لازما لهم.

قال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله: - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، لأنه - سبحانه - جعل الصبر سبباً للظفر، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذى هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته.

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتاً فقال:

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

- قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: نزلت هذه الآية فى قتلى غزوة بدر، قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلا: ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون. مات فلان ومات فلان. فنهى الله - تعالى - أن يقال فيهم: إنهم ماتوا.

- وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة، فنزلت هذه الآية.

والسبيل: الطريق وسبيل الله: طريق مرضاته، وإنما قيل للجهاد سبيل الله، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته.

و { أَمْوَاتٌ } مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: لا تقولوا هم أموات وكذلك قوله { أَحْيَاءٌ } خبر لمبتدأ محذوف أى: هم أحياء.

قال الآلوسى: " والجملة معطوفة على { وَلاَ تَقُولُواْ } اضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد ليكون فى حيز القول ويصير المعنى بل قولوا أحياء، لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا فى شأنهم إنهم أحياء وإن كان ذلك أيضاً صحيحاً ".

أى: لا تقولوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إنهم أموات، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة، وتصرمت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت، بل هم أحياء - فى عالم غير عالمكم كما قال - تعالى -

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ }

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين يقتلون في سبيل الله . في سبيل الله وحده، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله. في سبيل هذا المنهج الذي شرعه. في سبيل هذا الدين الذي اختاره.. في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار.

وقوله: { وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } أى: لا تحسون ولا تدركون حالهم بالمشاعر، لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا الوحى.

قال الآلوسي ما ملخصه: ثم إن نهى المؤمنين عن أن يقولوا فى شأن الشهداء أموات، إما أن يكون دفعاً لإيهام مساواتهم لغيرهم فى ذلك البرزخ... وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون فى شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولن يروه أبداً... ثم قال: وقد اختلف فى هذه الحياة التى يحياها أولئك الشهداء عند ربهم: فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكنها لا ندركها فى هذه النشأة واستدلوا بسياق قوله - تعالى -:

{ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون }

وبأن الحياة الروحانية التى ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم. وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون ولا ينافى ذلك.

. وذهب البلخى إلى نفى الحياة عنهم وقال؛ معنى { بَلْ أَحْيَاءٌ } إنهم يحيون يوم القيامة فيجزون أحسن الجزاء. فالآية على حد قوله - تعالى -

{ إِنَّ ٱلأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ }

وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بسبب ما نالوا من الذكر الجميل والثناء الجليل، كما روى عن على أنه قال: " هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة ".

ثم قال: " ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - فى غاية الضعف، بل نهاية البطلان، والمشهور ترجيح القول الأول ".

والذى نراه أن الآية الكريمة قد نبهتنا إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين عمن سواهم من كثير من الناس، وهى أنهم فى حياة سارة، ونعيم مقيم عند ربهم، وهذه الحياة الممتازة تسمو بهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم إنهم أموات وإن كان المعنى اللغوى للموت حاصلا لهم، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - إلا أننا نفوض كيفيتها وكنهها إليه - سبحانه - إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى، كما قال - تعالى -:
{ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } أى: لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكاره، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التى لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعرى الصبر فقال - تعالى –

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وقوله: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير: والله لنبلونكم.

وقوله: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } عطف على قوله: { ٱسْتَعِينُواْ } الخ، عطف المضمون على المضمون، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر، ومضمون الثانية بيان مواطنه، والمراد: ولنعاملنكم معاملة المختبر والمبتلى لأحوالكم:

والتنوين فى قوله: { بِشَيْءٍ } للتقليل. أى بقليل من كل واحد من هذه البلايا والمحن وهى الخوف وما عطف عليه.

وإنما قلل - كما قال الزمخشرى - ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم، وأنه - سبحانه - يبتليهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين.

و { ٱلْخَوْفِ } غم يلحق النفس لتوقع مكروه، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لاهم له إلا إيذاؤها بما تكره.

و { وَٱلْجُوعِ } ضد الشبع، والمراد منه القحط، وتعذر تحصيل القوت، والحاجة الملحة إلى طعام.

و { ٱلأَمَوَالِ } جمع مال، وهو ما يملك مما له قيمة، وجرى للعرب عرف باستعماله فى النعم خاصة - وهى الإبل والبقر والغنم -.
و { وَٱلثَّمَرَاتِ }: جمع ثمرة وهى حمل الشجر، وقد تطلق على الشجر والنبات نفسه.

والمعنى: ولنصيبنكم بشىء من الخوف وبشىء من الجوع، وبشىء من النقص فى الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله - تعالى -.

ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم كما حصل فى غزوة الأحزاب. وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من أوطانهم، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشد الحجر على بطنه. وحدث لهم نقص فى أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة الله. وحدث لهم نقص فى أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم. ولكن كل هذه الآلام لم تزدهم إلا إيماناً وتسليماً لقضاء الله وقدره، واستمساكاً بتعاليم دينهم.

وهذا البلاء وتلك الآلام لا بد منها ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف، إذ العقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى، وليعلم من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس لنقصان من درجاتهم، وحط من مراتبهم، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام الرازى: وأما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء. أى الإخبار به قبل وقوعه: ففيها وجوه.

- أحدها: ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود.
- وثانيها: أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب.
- وثالثها: أن الكفار إذا شاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع - يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل فى دلائله. ومن الملعوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع فى أعظم المحن بسبب المذهب الذى ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصراً على ذلك المذهب: كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه فى ذلك المذهب.

- ورابعها: أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه. فكان إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

- وخامسها: أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعاً فى المال وسعة الرزق، فإذا اختبره - سبحانه - بنزول هذه المحن، فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق.

- وسادسها: أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله - تعالى - أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه. فكانت الحكمة فى هذا الابتلاء ذلك.

ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف ذلك يذكر عاقبة الصبر، وجزائه الأسنى، فقال:

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

الخطاب فى قوله: { وَبَشِّرِ } للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من تتأتى منه البشارة. والجملة عطف على { لَنَبْلُوَنَّكُمْ } عطف المضمون على المضمون أى: الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر.

و { مُّصِيبَةٌ } اسم فاعل من الإصابة، والمرأ بها الآلام الداخلة على النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن.

و { رَاجِعونَ } من الرجوع بمعنى مصير الشيء إلى ما كان عليه، يقال: رجعت الدار إلى فلان إذا ملكها مرة ثانية، وهو نظير العود والمصير.

والمعنى: وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبية، فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، أو غير ذلك، قالوا: بألسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره :-
{ إِنَّا للَّهِ } أى: إنا لله ملكا وعبودية، والمالك يتصرف فى ملكه ويقلبه من حال إلى حال كيف يشاء،
{ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ } أى: وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التى ليس فى استطاعتنا دفعها.

فقولهم: { إِنَّا للَّهِ } إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين.
وقولهم: { وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ } إقرار بصحة البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة.

وليست هذه البشارة موجهة إلى الذين يقولون بألسنتهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وإنما هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول حلولها، يشير إلى هذا قوله - تعالى -: { ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ } فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة " ويصرح بهذا قوله صلى الله عليه وسلم " الصبر عند الصدمة الأولى ".

وهذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى -: { ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم }.. إلخ وصف كريم لأولئك الصابرين، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صادقة أنهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه، يكون بذلك قد هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئه.

قال القرطبى: جعل الله هذه الكلمات وهى قوله - تعالى - { إِنَّا للَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ } ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعانى المباركة، فإن قوله { إِنَّا للَّهِ } توحيد واقرار بالعبودية والملك وقوله { وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ } إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

- قال سعيد بن جبير: لم تعط هذه الكلمات نبياً قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفى على يوسف ".

هذا، ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن عند حصول المصيبة:

فقد ورد فى الصحيحين " أن النبى صلى الله عليه وسلم بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال: العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ".

وإنما الذى ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه، الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود.

ثم بين - سبحانه - ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال:

أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

{ أُولَٰئِكَ } اسم إشارة أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار إليه هم الموصوفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذى ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف.

و { صَلَوَاتٌ } جمع صلاة. وصلاة الله على عباده إقباله عليهم. بالثناء والعطف والمغفرة. وجمعت مراعاة لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات فى الدنيا والآخرة.

{ وَرَحْمَةٌ } - كما هو مذهب السلف - صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.

وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك الإقبال منه على عباده إنعاماً واسعاً، وعطاء جزيلا فى الدنيا والآخرة.

وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الإفراد، والمقام فى الآية يذهب بذهن السامع إلى كثرة الإنعام المترتب على الصبر الجميل.

والجملة { أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } استئنافية جواب عن سؤال تقديره: بماذا بشر الله الصابرين؟ فكان الجواب: أولئك عليهم صلوات... إلخ.

والمعنى: أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم فى دنياهم وآخرتهم

{ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ } لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله.

هذا، وفى فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة، وأحاديث متعددة أما الآيات فيزيد عددها فى القرآن على سبعين آية منها قوله - تعالى -

{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ }

وقوله { وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

وقوله:{ أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ }

وقوله:{ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها ما جاء فى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

" ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها " قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت: من خير من أبى سلمة: صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لي فقلتها: قالت: فتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده " عن أبي سنان قال: دفنت ابنا لى. وإني لفى القبر أخذ بيدى أبو طلحة " يعنى الخولانى " فأخرجنى وقال: ألا أبشرك؟ قال قلت: بلى. قال: حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله - تعالى -: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدى، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال فماذا قال؟ قال حمدك واسترجع. قال الله - تعالى -: ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد ".

ومنها ما رواه الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرةعن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ".

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى وردت فى ثواب الاسترجاع وفى أجر الصابرين وفضلهم.

ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّـهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّـهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴿١٥٨﴾

قال الآلوسى: بعد أن أشار - سبحانه - فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالج الحج، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شق الأنفس وتلف الأموال. وقيل لما ذكر الصبر عقبه ببحث الحج لما فيه من الأمور المحتاجة إليه ".

و { ٱلصَّفَا } فى اللغة: الحجر الأملس، مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص، مفرده صفاة فهو مثل حصى وحصاة .

و { ٱلْمَرْوَةَ } فى أصل اللغة: الحجر الأبيض اللين، وقيل: الحصاة الصغيرة. وهما - أى الصفا والمروة - قد جعلا علمين لجبلين معروفين بمكة كانا على بعد ما يقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام. والألف واللام فيهما للتعريف لا للجنس. ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين به.

و { شَعَآئِرِ } جمع شعيرة، من الإشعار بمعنى الإعلام، ومنه قولك شعرت بكذا، أى: علمت به.

وكون الصفا والمروة من شعائر الله، أى: أعلام دينه ومتعبداته. تعبدنا الله بالسعى بينهما فى الحج والعمرة.

وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التى جعلها الله أعلاما لطاعته، ومواضع نسكه وعباداته، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر.

وتطلق الشعائر على العبادات التى تعبدنا الله بها فى هذه المواضع، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله - تعالى -.

وأكدت الجملة الكريمة بأن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين فى كون السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وكانوا يظنون أن السعى بينهما من أحوال الجاهلية، كما سنبين بعد قليل.

وقوله: { فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا } تفريع على كونهما من شعائر الله وأن السعى بينهما فى الحج والعمرة من المناسك.
والحج لغة: القصد مطلقاً أو إلى معظم. وشرعا: القصد إلى البيت الحرام فى زمان معين بأعمال مخصوصة.

و { ٱعْتَمَرَ } أى: زار. والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته.
وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة وهى: الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة.

و { جُنَاحَ } - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جنح إذا مال عن القصد، وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل.

و { يَطَّوَّفَ } أصلها يتطوف، فأبدلت التاء طاء، وأدغمت فى الطاء فصارت " يطوف والتطوف بالشيء كالطواف به، ومعناه: الإلمام بالشيء والمشى حوله.

وقد فسر النبى - صلى الله عليه وسلم - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط. وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعى بينهما سبعة أشواط كذلك.

و " من " فى قوله: { فَمَنْ حَجَّ } شرطية، " وحج " فى محل جزم بالشرط، و { ٱلْبَيْتَ } منصوب على المفعولية، وجملة { فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا } جواب الشرط.

والمعنى: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أى: من المواضع التى يقام فيهما أمر من أمور دينه وهو السعى بينهما { فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ } أى: قصده بالأفعال المعينة التى شرعها الله { أَوِ ٱعْتَمَرَ } أى: أتى بالعمرة كما بينتها تعاليم الإسلام " فلا جناح عليه أن يطوف بهما " أى: فلا إثم ولا حرج ولا مؤاخذة عليه فى الطواف بهما، لأنهما مطلوبان للشارع، ومعدودان من الطاعات.

وهنا قد يقول قائل: إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها وذلك لأن قوله - تعالى -: { إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ } يدل على أن الطواف بهما مطلوب شرعاً طلبا أقل درجاته الندب، وقوله - تعالى - { فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا } يقتضى رفع الأثم عن المتطوف بهما، والتعبير برفع الإثم عن الشيء يأتى فى مقام الدلالة على إباحته، وإذن فما الأمر الداعى إلى أن يقال فى هذه الشعيرة: لا إثم على من يفعلها بعد التصريح بأنها من شعائر الله؟
وللإجابة على هذا القول نقول. إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا الاستشكال.
وقد روى العلماء فى سبب نزولها عدة روايات منها: <u>ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت عائشة - رضى الله عنها - قلت لها: أرأيت قوله - تعالى -: { إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا... } فوالله؛ ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟ قالت بئس ما قلت يا ابن أختى!! إن هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت: لا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكن الآية أنزلت فى الأنصار. كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل. فكان من أهل يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية.</u>

قالت عائشة: وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

وهناك رواية لمسلم عن عروة عن عائشة تشبه ما جاء فى رواية البخارى، وهناك رواية للنسائى عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما " إساف ونائلة " كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما.

وهناك رواية للطبرانى وابن أبى حاتم بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعى بن الصفا والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية.

فيؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائرهم فى الجاهلية فقد كانوا يهلون - أى يحرمون - لمناة، ثم يسعون بينهما ليتمسحوا بصنمين عليهما، وهم لا يريدون أن يعملوا فى الإسلام شيئا مما كان من أمر الجاهلية لأن دين الإسلام الذى خالط أعماق قلوبهم هز أرواحهم هزاً قوياً وجعلهم ينظرون بجفوة وازدراء واحتراس إلى كل ما كانوا عليه فى الجاهلية من أعمال تتنافى مع تعاليم دينهم الجديد، فنزلت هذه الآية الكريمة لتزيل التحرج الذى كان يتردد فى صدورهم من السعى بين الصفا والمروة.

⇦ وهذا يدل على قوة إيمانهم، وصفاء يقينهم، وتحرزهم من كل قول أو عمل يشم منه رائحة التعارض مع العقيدة التى جعلتهم يخلصون عبادتهم لله الواحد القهار.

وقوله { وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ } تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلى فى أفعال الخيرات كلها، وقيل إنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعى بين الصفا والمروة.

و { تَطَوَّعَ } من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة، وقيل هو التطوع بالنفل خاصة.

{ شَاكِرٌ } من الشكر، والشاكر فى اللغة هو المظهر للإنعام عليه، وذلك محال فى حق الله - تعالى -، إذ هو المنعم على خلقه، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات، وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل.

قال الإمام الرازى: وإنما سمى - سبحانه - المجازاة على الطاعة شكراً لوجوه:

- الأول: أن اللفظ خرج مخرج التلطف مع العباد مبالغة فى الإحسان إليهم، كما فى قوله - تعالى -: { مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } وهو - سبحانه - لا يستقرض من عوز، ولكنه تلطف فى

الاستدعاء كأنه قيل: من ذا الذى يعمل عمل المقرض. بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم.

- الثانى: أن الشكر لما كان مقابلا للإنعام أو الجزاء عليه، سمى كل ما كان جزاء شكراً على سبيل التشبيه.
- الثالث: كأنه يقول: أنا وإن كنت غنياً عن طاعتك، إلا أنى أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل.

وبالجملة فالمقصود أن طاعة العبد مقبولة عند الله، وواقعة موقع القبول فى أقصى الدرجات.

و { وَمَن } شرطية.

و { تَطَوَّعَ } فعل الشرط

{ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ } دليل على جواب الشرط، إذ التقدير، ومن تطوع خيراً جوزى فإن الله شاكر عليم.

والمعنى: ومن تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات، أو من أتى بالحج أو العمرة طاعة لله، أو من أتى بهما مرة بعد مرة زيادة على المفروض أو الواجب عليه، فاز بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم؛ لأن من صفاته - سبحانه - مجازاة من يحسنون العمل، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده، ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

هذا، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى حكم السعى بين الصفا والمروة.

فمنهم من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة. وإلى هذا الرأى ذهب الشافعى وأحمد بن حنبل ومالك فى أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد اهتم به وبادر إليه، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة، ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتى امرأته؟ فقال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة. وقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ".

-ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأى ذهب الحنفية ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعى فلا يكون ركناً.

-ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح فى كتب الفقه.

ثم حض - سبحانه - على إظهار الحق وبيانه، وتوعد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه.

فقال - تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

قال الآلوسى: أخرج جماعة عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجه بن زيد نفراً من أحبار يهود عما فى التوراة من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعض الأحكام فكتموا، فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ }... إلخ.

والكتم والكتمان: إخفاء الشيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره. وكتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جرياً مع الأهواء، وقد فعل أهل الكتاب ولا سيما اليهود - كل ذلك. فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من آيات أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسداً له على ما آتاه الله من فضله، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلا فاسداً تبعاً لأهوائهم.

- والمراد " بما أنزلنا " ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ومن هداية وأحكام.
- والمراد بالكتاب جنس الكتب، فيصح حمله على جميع الكتب التى أنزلت على الرسل - عليهم السلام - وقيل: المراد به التوراة.
- و { ٱلْبَيِّنَاتِ } جمع بينة، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح، وهى ما نزل على الأنبياء من طريق الوحى.
- والمراد بـ { ٱلْهُدَىٰ } ما يهدى إلى الرشد مطلقاً فهو أعم من البينات، إذ يشمل المعانى المستمدة من الآيات البينات عن طريق الاستنباط، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة.
- و " اللعن " الطرد والإبعاد من الرحمة. يقال: لعنه، أى: طرده وأبعده ساخطاً عليه، فهو لعين وملعون.

والمعنى: إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس فى كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك { يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ } بأن يبعدهم عن رحمته { وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاَّعِنُونَ } أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره.

وجملة { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ... } إلخ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأكدت ب" إن " للاهتمام بهذا الخبر الذى ألقى على مسامع الناس.

وعبر فى { يَكْتُمُونَ } بالفعل المضارع، للدلالة على أنهم فى الحال كاتمون للبينات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضى لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين.

وقوله: { مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فى ٱلْكِتَابِ } متعلق بيكتمون، وقد دلت هذه الجملة الكريمة على أن معصيتهم بالكتمان فى أحط الدركات وأقبحها؛ لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى، وجعله بينا للناس فى كتاب يقرأ، فكتموه قصداً مع تحقق المقتضى لإظهاره، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية فى سفاهة الرأى، وخبث الطوية.
واللام فى قوله: { لِلنَّاسِ } للتعليل، أى: بيناه فى الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس، وفى هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق، فهو فى الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذى هو فى أشد الحاجة إليه.

وقوله: { أُولَـٰئِكَ يَلعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاَّعِنُونَ } يفيد نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه.

والآية الكريمة وإن كانت نزلت فى أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علماً نافعاً، أو غير ذلك من الأمور التى يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء فى صحيح البخارى
عن أبى هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب ما حدثت حديثاً ثم تلا قوله - تعالى -: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ } إلى قوله: { الرَّحِيمُ }.

قال ابن كثير: وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبى هريرة وغيره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ".

هذا، وينبغى أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهياً قاطعاً عن كتم العلم الذى فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصاً العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على الناس من علم، ففى الحديث الشريف: " حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ".

كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم فى موضعه المناسب لمقتضى حال المخاطبين، فليس كل ما يعلم يقال، بل أحياناً يكون إخفاء بعض الأحكام مناسباً لأن إظهاره قد يستعمله الطغاة والسفهاء فيما يؤذى

الناس، وفى صحيح البخارى أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقبها النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، حيث قطع النبى صلى الله عليه وسلم أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم فى الحرة حتى ماتوا. فلما بلغ الحسن البصرى ذلك قال: وددت أنه لم يحدثه؟؟ انهم يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيما يعاملون به الناس من الظلم.

ومما يشهد بفقه بعض العلماء وحسن إدراكهم، ووضعهم العلم فى موضعه المناسب: ما جاء فى بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثى عن حكم يوم أفطره فى رمضان عامداً لأن شهوته غلبته على وطء بعض جواريه، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يوماً، وكان بعض الفقهاء جالساً فلم يجترئ على مخالفة يحيى.

فلما انفض المجلس قيل له: لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام؟ فقال - رحمه الله - لو فتحنا هذا الباب لو طئ كل يوم وأعتق أو أطعم، فحملته على الأصعب لئلا يعود.

فالإمام يحيى عند ما كتم عن السلطان الكفارتين الأخريين - وهما الأعتاق والإطعام - لا يعتبر مسيئاً؛ لأنه قد أعمل دليل دفع مفسدة الجرأة على حرمة فريضة الصوم.

وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره، ووضعه فى موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان، وحسن الصلة بالله - تعالى -:{ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ }

وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، أورد القرآن فى أعقاب ذلك آية تفتح لهم نافذة الأمل، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنابوا قبل الله توبتهم ورحمهم، فقال - تعالى -:

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

{ إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُواْ } أى: رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه، وندموا على ما صدر عنهم
{ وَأَصْلَحُواْ } ما أفسده بالكتمان بكل وسيلة ممكنة
{ وَبَيَّنُواْ } للناس حقيقة ما كتموه
{ فَأُوْلَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ } أى: أقبل توبتهم، وأفيض عليهم من رحمتى ومغفرتى، { وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ } أى: المبالغ فى قبول التوبة ونشر الرحمة.

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين لما يجب إظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغى وتركوا ما لا ينبغى وأخلصوا لله نياتهم، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم، ويغسل حويتهم، أما إذا

استمروا فى ضلالهم وكفرهم، ومضوا فى هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾

{ إن ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } أى: إن الذين كفروا وكتموا ما من شأنه أن يظهر، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا.{ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلاۤئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ } أى: أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم اللعنة المستمرة من الله والطرد من رحمته، وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله.

وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا، ليحضرهم فى الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر، وليتناول الوعيد الذى اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان.

وجملة { وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } حالية، و { أَجْمَعِينَ } تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط.

والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضاً يوم القيامة كما جاء فى قوله - تعالى -:

{ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً }

وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وقوله: { خَالِدِينَ فِيهَا } الخلود البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة. وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى: البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير فى قوله { فِيهَا } يعود إلى اللعنة لأنها هى المذكورة فى الجملة. وقيل إنه يعود إلى النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون فى النار. وقوله { لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ } أى: أن المقدار الذى استحقوه من العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفاً، وإنما هم فى عذاب سرمدى أليم، كما قال - تعالى -

{ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }

والزيادة فى قوله - تعالى -:{ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً }

حملها بعض العلماء على معنى استمرار العذاب، فهى إشارة إلى الخلود فيه لا إلى الزيادة فى شدته. وقوله: { خَالِدِينَ فِيهَا } إشارة إلى دوام العذاب وعدم انقطاعه. وقوله: { لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ } إشارة إلى كيفيته وشدته.

وقوله: { وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ } أى: لا يمهلون ولا يؤخرون من العذاب كما كانوا يمهلون فى الدنيا. من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال. أو من النظر بمعنى الانتظار يقال: نظرته وانتظرته، أى: أخرته وأمهلته ومنه قوله - تعالى -:{ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ }

أو من النظر بمعنى الرؤية، أى: لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف كما ينظر إلى عباده الصالحين، لأنهم بكتمانهم للحق، وكفرهم بالله، استحقوا ما استحقوا من العذاب المهين.

{ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حذرت الناس بأسلوب تأديبى حكيم من كتمان الحق، ومن الكفر بالله، وفتحت أمامهم باب التوبة ليدخلوه بصادق النية، وصالح العمل، وتوعدت من يستمر فى ضلاله وطغيانه بأقسى أنواع العذاب، وأغلظ ألوانه.

وبعد أن حذر - سبحانه - من كتمان الحق، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته، وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع فقال - تعالى -:

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

قوله: { وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ } معطوف على قوله:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا }

عطف القصة على القصة، والجامع - كما قال الآلوسى - أن الأولى - وهى قوله:

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ }

مسوقة لإثبات نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وجملة { وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ } لإثبات وحدانية الله - تعالى -.

والإله فى كلام العرب هو المعبود مطلقاً ولذلك تعددت الآلهة عندهم. والمراد به فى الآية الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد.

والمعنى: وإلهكم الذى يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد، فمن عبد شيئاً دونه، أو عبد شيئاً معه، فعبادته باطلة فاسدة، لأن العبادة الصحيحة هى ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذى قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين.

قال بعضهم: " والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجرى عليه الوصف بواحد، والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية فى المخبر عنه.

وجملة { إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ } مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحه، ومثبتة له مع ذلك الإلهية الحقة، ومزيحة لما عسى أن يتوهم من أن فى الوجود إلهاً سوى الله - تعالى - لكنه لا يستحق العبادة.

ومعناها: إن الله إله، وليس شيء مما سواه بإله.

وهذه الجملة الكريمة خبر ثانى للمبتدأ وهو (إلهكم) أو صفة أخرى للخبر وهو (إله) وخبر (لا) محذوف أى لا إله موجود إلا هو.

وقوله: { ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ }

والمعنى: وإلهكم الذى يستحق العبادة إله واحد، لا إله مستحق لها إلا هو، هو الرحمن الرحيم.

أى: المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو مصدر الرحمة، ودائم الإحسان.

وأتى - سبحانه - بهذين اللفظين فى ختام الآية، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر فى ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب فى هيبة وخشية، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان، مصدر الإحسان ومولى النعم، فقال: { ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ } وهذه طريقة القرآن فى الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية، حتى لا يعتريها اليأس أو القنوط.

وبعد أن أخبر - سبحانه - بأنه هو الإله الذى لا يستحق العبادة أحد سواه، عقب ذلك بإيراد ثمانية أدلة تشهد بوحدانيته وقدرته، وتشتمل على آيات ساطعات، وبينات واضحات، تهدى أصحاب العقول السليمة إلى عبادة الله وحده، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته.

ويشتمل الدليل الأول والثانى على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى قوله - تعالى -:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

الخلق: هو الإحداث للشيء على غير مثال سابق. وهو هنا بمعنى المخلوق. إذ الآيات التى تشاهد إنما هى فى المخلوق الذى هو السماوات والأرض.

والسماوات: جمع سماء، وهى كل ما علا كالسقف وغيره، إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض، وهى سبع كما ورد ذلك صريحاً فى بعض الآيات التى منها قوله - تعالى -:{ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }

وجمعت السماوات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها الشخصية، كما يدل عليه قوله - تعالى -{ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }

ولأن إفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح فى كونها سبعاً.

وجاءت الأرض مفردة - وهى لم تجئ فى القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذى يتبادر من ظاهر قوله - تعالى -:{ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ ٱلأَرْضِ مِثْلَهُنَّ }

على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض.

ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته فى خلق السماوات وارتفاعها بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة، وتزيينها بالمصابيح التى جعلها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التى لا ترى فيها أى تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته فى خلق الأرض، فرشها بتلك الطريقة الرائعة التى يتيسر معها للإنسان أن يتقلب فى أرجائها، ويمشى فى مناكبها، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان، وتفجيرها بالأنهار، وعمارتها بحدائق ذات ثمار تختلف ألوانها ويتفاضل أكلها.

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تتحدث عن نعم الله على عبادة فى خلق السماوات والأرض، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته فى إيجادهما على تلك الصورة، ومن ذلك :

قوله - تعالى -:{ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ }

وقوله - تعالى -:{ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ }

وقوله - تعالى -{ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً وَٱللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً }

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته.

ويتمثل الدليل الثالث على قدرته - سبحانه - ووحدانيته فى قوله تعالى: { وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ } ، والاختلاف: افتعال من الخلف، وهو أن يجئ شىء عوضاً عن شىء آخر يخلفه على وجه التعاقب.
والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتى خلفا من الآخر وفى أعقابه، ويجوز أن يكون المراد باختلافهما، فى أنفسهما بالطول والقصر، واختلافهما فى جنسهما بالسواد والبياض.

و { ٱللَّيْلِ }: هو الظلام المعاقب للنهار، واحدته ليلة كتمر وتمرة.

و { وَٱلنَّهَارِ }: هو الضياء المتسع.

وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وفقه الله لقضاء جانب منه فى مناجاته - سبحانه - وجعل النهار للعمل وابتغاء الرزق.

قال - تعالى -:{ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً }

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار، لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضراً.

قال - تعالى -:{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

ومن العظات التى تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد.

قال - تعالى -:{ لاَ ٱلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ ٱلقَمَرَ وَلاَ ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }

وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذى لا ينخرم دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال.

وإذا كان لهذا الاطراد أسباب تحدث عنها العلماء، فإن الذى خلق الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازماً إنما هو الإله الواحد القهار.

أما المظهر الرابع من المظاهر الدالة فى هذا الكون على قدرته - سبحانه - ووحدانيته وألوهيته، فقد تحدثت عنه الآية فى قوله - تعالى -: { وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ }.

(الفلك): ما عظم من السفن، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع. والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى -: { ٱلَّتِي تَجْرِي فى ٱلْبَحْرِ } ولو كان هذا اللفظ للمفرد لقال: الذى يجرى، كما جاء فى قوله - تعالى -:{ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ }

والجملة الكريمة معطوفة على خلق السماوات والأرض.

قال صاحب المنار: وكان الظاهر أن تأتى هذه الجملة فى آخر الآية ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة. والنكتة فى ذكرها عقيب آية الليل والنهار، هى أن المسافرين فى البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذى ينتفع به، والمسافرون فى البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات، لأن خطر الجهل عليهم أشد، وفائدة المعرفة لهم أعظم، ولذلك كان من ضروريات ربانى السفن معرفة علم النجوم، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم. قال - تعالى -:{ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ }

فهذا وجه العلاقة بين ذكر الفلك وما قبله.

و " ما " فى قوله: { بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ } مصدرية، والباء للسببية أى: تجرى بسبب نفع الناس ولأجله فى التجارة وغيرها. أو موصولة والباء للحال، أى تجرى مصحوبة بالأعيان التى تنفع الناس. وخص - سبحانه - النفع بالذكر وإن كانت السفن تحمل ما ينفع وما يضر؛ لأن المراد هنا عد النعم، ولأن الذى يحمل فيها ما يضر غيره هو فى الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه.

ومن وجوه الاستدلال بالفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس على وجود الله وقدرته، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس إلا أن الله - تعالى - هو الذى خلق الآلات والأجزاء التى صارت بها سفناً، وهو الذى سخر لبحر لتجرى فيه مقبلة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقاً حتى تصل إلى بر الأمان، وهو الذى رعاها برعايته وهى كنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع، ووسط تلك الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهى حاملة الكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة، فسبحانه من إله قادر حكيم.

الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل فى قوله - تعالى - فى هذه الآية: { وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ }.

والمراد بالسماء: جهة العلو، أى: وما أنزل من جهة السماء من ماء، و " من " فى قوله: { مِنَ ٱلسَّمَآءِ } ابتدائية، وفى قوله: { مِن مَّآءٍ } بيانية، وهما ومجرورهما متعلقان بأنزل.

والمراد بإحياء الأرض: تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك.

والمراد بموتها: خلوها من ذلك باستيلاء اليبوسة والقحط عليها.
قال - تعالى -:{ وَتَرَى ٱلأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }

(والبث): التفريق والنشر لما كان خافيا، ومنه بث الشكوى أى: نشرها وإظهارها، وكل شىء بثثته فقد فرقته ونشرته، والضمير فى قوله: " فيها " يعود إلى الأرض.

(والدابة): اسم من الدبيب والمشى ببطء، كل ما يمشى فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوى يطلق عليه دابة. والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام، لا ما يجرى به العرف الخاص باستعماله فى نوع خاص من الحيوان كذوات الأربع.

والمعنى: وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك، عمرت به الأرض بعد خرابها، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته.

ذلك لأنه هو وحده الذى أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن الماء من طبعه الانحدار، وهو وحده الذى جعل الأرض التى نعيش عليها تنبت من كل زوج بهيج بسبب ما أنزل عليها من ماء، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعاً من الدواب مختلفة فى طبيعتها وأحجامها، وأشكالها وألوانها، وأصواتها، ومآكلها، وحملها، وتناسلها، ووجوه الانتفاع بها، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم.

أما الدليل السابع والثامن فى هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى -: { وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ }.

الرياح جمع ريح وهى نسيم الهواء.

وتصريفها: تقليبها فى الجهات المختلفة، ونقلها من حال إلى حال، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه - ووفق حكمته. فتهب تارة صباً، أى من مطلع الشمس، وتارة دبوراً، أى: من جهة الغرب، وأحياناً من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة ولينة، حارة أو باردة، لواقح بالرحمة حيناً وبالعذاب آخر. { وَتَصْرِيفِ } مصدر صرف مضاف للمفعول والفاعل هو الله، أى: وتصريف الله الرياح. أو مضاف للفاعل والمفعول الحساب، أى: وتصريف الرياح السحاب.

وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء الأرض بالمطر وبث الدواب فيها للتناسب بينهما، وتذكيراً بالسبب إذ بالرياح تكون حياة النبات والحيوان وكل دابة على الأرض، ولو أمسك - سبحانه - الرياح عن التصريف لما عاش كائن على ظهر الأرض.

{ وَٱلسَّحَابِ }: عطف على ما قبله، وهو اسم جنس واحد سحابة، سمى بذلك لانسحابه فى الجو أو لجر الرياح له.

و { ٱلْمُسَخَّرِ }: من التسخير وهو التذليل والتيسير، ومعنى تسخيره - كما قال الآلوسى - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفاً وهبوطه إن كان كثيفا - و { ٱلْمُسَخَّرِ } صفة للسحاب باعتبار لفظه، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله:{ سَحَاباً ثِقَالاً }

والظرف " بين " يجوز أن يكون منصوباً بقوله المسخر فيكون ظرفاً للتسخير،
ويجوز أن يكون حالا -من الضمير المستتر فى اسم المفعول فيتعلق بمحذوف -أى: كائناً بين السماء والأرض.

وجاء ذكر السحاب بعد تصريف الرياح لأنها هى التى تثيره وتجمعه، وهى التى تسوقه إلى حيث ينزل مطراً فى الأماكن التى يريد الله إحياءها.

قال - تعالى -:{ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ }

ولا شك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى، وهى مع ذلك فى غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب الديار، وهذا التسخير للسحاب بحيث يبقى معلقاً بين السماء والأرض مع حمله للمياه العظيمة التى تسيل بها الأودية المتسعة... لا شك أن كل ذلك من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبراً قادراً حكيماً هو الله رب العالمين.

وقوله: { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } -اسم { إِنَّ } -لقوله - تعالى - فى أول الآية: { إِنَّ فى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ }
ودخلت اللام على الاسم وهو { لآيَاتٍ } لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كما وكيفاً.

أى: إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة، وكائناته الباهرة، لدلائل ساطعة، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها، إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً حكيماً مستحقا للعبادة والخضوع والطاعة.

وموقع هذه الآية الكريمة من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى، ذلك أن الله - تعالى - أخبر فى الآية السابقة أن الإله واحد لا إله غيره وهى قضية قد تلقاها كثير من الناس بالإنكار، فناسب أن يأتى فى هذه الآية الكريمة بالحجج والبراهين التى لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن اقتناع بوحدانية الله - تعالى - وقدرته.

قال الإمام الرازى: واعلم أن النعم على قسمين: نعم دنيوية ونعم دينية وهذه الأمور الثمانية، التى عدها الله - تعالى - نعم دنيوية فى الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعما دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، فلذلك قال: { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

وقال الآلوسى: أخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال: " ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ".

ثم قال الآلوسى: ومن تأمل فى تلك المخلوقات التى وردت فى هذه الآية وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول فى ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه، مستتبعا لآثار معينة، وأحكام مخصوصة.

.. وفى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة.

والحق أن هذه الآية الكريمة قد اتجهت فى تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما فى هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقية الخالق - عز وجل - بالعبادة.

وهذه الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديرة بأن تفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التى أصبحت عند كثير من الناس شيئاً مألوفاً بسبب عدم تدبرهم لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ }

ورحم الله القائل: ألا إن لله كتابين: كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً منزلا وهو القرآن. وإنما يرشدنا هذا إلى طريق بذاك بما أوتينا من العقل. فمن أطاع فهو من الفائزين، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانباً من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال - تعالى -:

مِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّـهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّـهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّـهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

{ أَندَاداً }: جمع ند، وهو مثل الشيء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير ، أى: نفر وذهب على وجهه شارداً.
ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله،
وقيل: المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم.
والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله - تعالى - من نحو التحليل، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التى انفرد بها الخالق - عز وجل -.

والمعنى: أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التى دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - فى النفع والضر، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى - أو يشابه حب المؤمنين لله، و { مِنَ } فى قوله: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ } للتبعيض، والجار والمجرور خبر مقدم و { مِنَ } فى قوله: { مَن يَتَّخِذُ } فى محل رفع مبتدأ مؤخر، و " من دون الله، حال من ضمير يتخذ و { أَندَاداً } مفعول به ليتخذ.

من الناس من يتخذ من دون الله أندادا.. كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارا وأشجارا، أو نجوما وكواكب، أو ملائكة وشياطين.. وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص أو شارات أو اعتبارات.. وكلها شرك خفي أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله. فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟ إن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله . لا أنفسهم ولا سواهم. لا أشخاصا ولا اعتبارات ولا شارات ولا قيما من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس..

ثم مدح - سبحانه - عبادة المؤمنين فقال: { وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ }.

أى: والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حباً له - سبحانه - من كل ما سواه، ومن حب المشركين للأنداد، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية، وعن علم تام، ببديع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

والتصريح بالأشدية فى قوله: { أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ } أبلغ من أن يقال أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة فى أصل الفعل - كما يقول الآلوسى - بل المراد الرسوخ والثبات.

وقيل: عدل عن أحب إلى أشد حباً، لأن " أحب " شاع فى الأشد محبوبية فعدل عنه احترازا عن اللبس.

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال فى حبهم لله - تعالى - لأنهم ضحوا فى سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شىء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتبوه.

ثم أخبر - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال:
{ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوۤاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ }
" لَوْ " شرطية، وجوابها محذوف لقصد التهويل ولتذهب النفس فى تصويره كل مذهب و { ٱلْقُوَّةَ } القدرة والسلطان.

والمعنى: ولو يرى أولئك المشركون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده، وأن عذابه الذى يصيب به المتخطبين فى ظلمات الشرك شديد، لو يعلمون ذلك، لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولوقعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة والندامة.

وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال: ولو يرون إذ يرون. ولكن وضع الموصول وصلته موضع الضمير، ليحضر فى ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأنداد من الظالمين، وليشعر بأن سبب رؤيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم.

وعبر بالماضى فى قوله: { إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ } لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما وقع وحصل.

وجملة { أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } سدت مسد مفعولى يرى، وانتصب لفظ { جَمِيعاً } على التوكيد للقوة. أى. جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة فى عدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق فى قوله:{ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ }

وجملة { وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ } معطوفة على ما قبلها، وفائدتها المبالغة فى تفظيع الخطب، وتهويل الأمر، فإن اختصاص القوة به - تعالى - لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه.

هذا، وقد قرأ نافع وابن عمر " ولو ترى " بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى له الخطاب.

أى: لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمراً عظيماً فى الفظاعة والهول.

وقوله - تعالى -:

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾

{ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ... } بدل من قوله: { إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ }. أو مفعولا به بتقدير اذكر.

و { تَبَرَّأَ } من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد، ومنه برئت من الدين أى: تخلصت منه، وبرأ المريض من مرضه، أى: تخلص من مرضه.

والمراد بالذين اتبعوا: أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون ما لم يأذن به الله.

والمراد بالذين اتبعوا: أتباعهم وأشياعهم الذين يتلقون جميع أقوالهم بالطاعة والخضوع بدون تدبر أو تعقل.

وجملة { وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ } حال من الأتباع والمتبوعين، والضمير يعود على الفريقين. أى: تبرؤا جميعاً من بعض فى حال رؤيتهم للعذاب.

وجملة { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلأَسْبَابُ } معطوفة على تبرأ، أورأوا.

والباء فى { بِهِمُ } للسببية أى: وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التى كانوا يرجون من ورائها النجاة، وقيل للملابسة أى: تقطعت الأسباب ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى.

و { ٱلأَسْبَابُ } جمع سبب، وهو فى الأصل الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه، ثم سمى به كل ما يتوصل به إلى غيره، عيناً كان أو معنى. فيقال للطريق سبب، لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذى تريده، ويقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك، والمراد بالأسباب هنا: الوشائج والصلات التى كانت بين الأتباع والمتبوعين فى الدنيا، من القرابات والمودات والأحلاف والاتفاق فى الدين... إلخ.

والمعنى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يتنصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم، والاتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعاً للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعدلهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها فى الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرؤ منه.

قال بعض العلماء: وفى قوله: { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلأَسْبَابُ } استعارة تمثيلية إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعاً حينئذ أن لانجاة لهم، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة. وهى تمثيلية بديعة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التى تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهى:

تشبيه المشرك فى عبادته الأصنام بالمرتقى بجامع السعى، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة فى أعلى النخلة لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة فى الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة، وتشبيه الوقوع فى العذاب بالسقوط المهلك... ".

ثم بين - سبحانه - ما قاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال:

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّـهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

الكرة: الرجعة والعودة.

و (لو) للتمنى. وقوله: { فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ } منصوب بعد الفاء بأن مضمرة فى جواب التمنى الذى أشربته لو، والكاف فى قوله { كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا } أى تبرأ مثل تبرئهم.

والمعنى: وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم فى الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم.

إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين! وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم:

(كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار) ..

وقوله - تعالى -: { كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ } تذييل لتأكيد الوعيد، وبيان لحال المشركين فى الآخرة.

قال الآلوسى: وقوله: { كَذَلِكَ } فى موضع المفعول المطلق لما بعده، والمشار إليه الإراء المفهوم من قوله: { إِذْ يَرَوْنَ } أى: كإراء العذاب المتلبس بظهور أن القوة لله والتبرى وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم. وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المفهوم مما بعد والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة. أى: مثل ذلك الإراء الفظيع يريهم على حد ما قيل فى قوله - تعالى -:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }

والمراد بأعمالهم: المعاصى التى ارتكبوها وفى مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم.

و { حَسَرَاتٍ } جمع حسرة، وهى أشد درجات الندم والغم على ما فات. يقال: حسر يحسر حسراً فهو حسير، إذا اشتدت ندامته على أمر فاته.

قال الرازى: وأصل الحسر الكشف. يقال حسر ذراعيه أى: كشف والحسرة انكشاف عن حال الندامة. والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر. قال - تعالى -:{ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ }

والمعنى: كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب بينهم، يريهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد فى صدورهم كأنها شرر الجحيم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال: { وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ }.

أى: وما هم بخارجين من تلك النار التى عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقراراً أبدياً، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - فى آية أخرى:{ كُلَّمَآ أَرَادُوۤاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا }

وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة. وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن فى عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة، وتؤتى ثمارها الطيبة فى القلوب السليمة.

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى -:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

{ كُلُواْ } صيغة أمر واردة فى معنى الإباحة.

و { حَلاَلاً } ما أذن الله فى تناوله من مطعومات أو مشروبات.

قال الرازى: وأصله الذى هو نقيض العقد، ومنه حل بالمكان إذا نزل، لأنه حل شد الارتحال للنزول، وحل الدين إذا وجب لانحلال العقدة بانقضاء المدة، وحل من إحرامه، لأنه حل عقدة الإحرام.. ثم قال: واعلم أن الحرام قد يكون حراما لخبثه - فى ذاته - كالميتة والدم ولحم الخنزير، وقد يكون حراما لوصف عارض كملك الغير إذا لم يأذن فى أكله - فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلال هو الخالى عن هذين القيدين.

{ طَيِّباً }: هو المستلذ المستطاب الذى تقبل عليه النفوس الطاهرة وتنبسط لتناوله، وإنما تنبسط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قذر ولا موقع فى تهلكة، إذ القذر ينفر منه الطبع السليم، والموقع فى تهلكة يمجه العقل القويم.

و { من } فى قوله: { مِمَّا فِى ٱلأَرْضِ } للتبعيض، لأن بعض ما فى الأرض كالحجارة - مثلا - لا يؤكل، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال: { حَلاَلاً طَيِّباً.. }.

وقوله: { حَلاَلاً } مفعول به لقوله: " كلوا " أو حال مما فى الأرض، أى: كلوه حال كونه حلالا. أو صفة لمصدر محذوف، أى: كلوه أكلا حلالا.

وقوله: { طَيِّباً } صفة مقررة ومؤكدة لمعنى يستفاد من قوله: { حَلاَلاً } وهو طهارة المأكول وخلوه من القذارة، وعدم إيقاعه فى ضرر.

قال الآلوسى: " وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما فى قوله - تعالى -:

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلأَرْضِ }

ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم، بخلاف غير الموصوفة ".

والمعنى: يأيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض من المطعومات التى أحلت لكم، والتى تستلذها النفوس الكريمة، والقلوب الطاهرة، فتمتعوا بهذه الطيبات فى غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم.

ولقد أمر الله عباده فى كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى -:

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

وفى صحيح مسلم عن عياض المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: " ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى، يومى هذا. يقول الله - تعالى -: كل ما نحلته - أى منحته - عبادى فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً.. "

وعن ابن عباس قال: " تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم { يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فى ٱلأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً } فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ".

وليس من الورع ولا الزهد المرضى عنه شرعا ترك بعض المباحات، فإن الله سوى فى المباح بين الفعل والترك، ومن يجعل ترك المباح من الورع، والورع مندوب، فكأنه يقول: إن الترك راجح على الفعل، وهو غير ما حكم الله به.

وكان الحسن البصرى - وهو من أجل التابعين - يقوِّم عِوَج من يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة.

يحكى عنه أنه شهد يوما وليمة، فرأى رجلا يرفع يده عندما قدمت الحلوى فقال له الحسن: كل يا لكع فلنعمة الله عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته فى هذه الحلوى.

ودخل عليه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن: أتحب الخبيص - وهو طعام لذيذ - فقال الزاهد: لا أحبه ولا أحب من يحبه!! فأقبل الحسن على جلسائه وقال لهم: أترونه مجنونا.

والخلاصة: أنه لا ورع فى ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التنطع فى الدين، وإنما الورع فى ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله عنه.

هذا، وقد أورد بعض المفسرين آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت فى قوم معينين.

قال الآلوسى: نزلت فى المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقيل نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبين مدلج حيث حرموا التمر والاقط على أنفسهم.

والذى نراه أن الخطاب فى الآية لجميع المكلفين من البشر، وأنها واردة لتفنيد آراء الذين يحرمون على أنفسهم مطعومات لم يقم دليل من الشارع على تحريمها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال - تعالى -: { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ }.

الخطوات: جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى: كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم. ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته ووساوسه وطرقه التى يحرم بها الحلال ويحلل الحرام والتى يقذفها فى صدور بعض الناس فتجعلهم يتنقلون من الطاعات إلى المعاصى.

وفى الجملة الكريمة استعارة تمثيلية، إذ أن السائر فى طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظناً منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدى الذى لا دليل معه سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلا، بالذى يتبع خطوات السائرين، وشاعت هذه الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدى به.

وقوله: { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } تعليل للنهى عن اتباع الشيطان و " مبين " من أبان بمعنى بان وظهر، وقيل: من أبان بمعنى أظهر، أى: مظهر للعداوة.

والمعنى: " ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أى عاقل.

وقوله - تعالى -:

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

{ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِٱلسُّوۤءِ وَٱلْفَحْشَآءِ } استئناف لبيان كيفية عداوته، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده.

والسوء فى الأصل: مصدر ساءه يسوءه سوءاً ومساءة إذا أحزنه، والمراد به هنا، كل ما يغضب الله -

تعالى - من المعاصى، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه فى الحال أو المآل.

والفحشاء والفاحشة والفحش: ما عظم قبحه مر الأقوال والأفعال.

وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لا حد فيه، والفحشاء بما فيه حد.

والأمر فى الأصل: الطلب بالقول، واستعمل فى تزيين الشيطان المعصية، لأن تزيينها فى معنى الدعوة إليها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا مع قوله{ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }

قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتنى نفسى بكذا، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال:{ وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلأَنْعَامِ وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ }
وقال - تعالى -:{ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوۤءِ } لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت ".

وقوله: { وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } معطوف على ما قبله.

أى: يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء، ويأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل: لقد أحل الله كذا وحرم كذا بدون دليل شرعى يعتمد عليه.

قال الإمام ابن القيم: " والقول على الله بغير علم يعم القول عليه - سبحانه - فى أسمائه وصفاته وأفعاله، وفى دينه وشرعه، وقد جعله - سبحانه - من أعظم المحرمات، بل جعله فى المرتبة العليا منها، فقال - تعالى -:-

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

وقال - تعالى -:-

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلاَلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَىٰ ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال. وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه ".

وقال بعض العلماء: وقد يخطر على بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين لبعض الوقائع أحكاماً من طريق الاستنباط، قد يستندون فى ذلك إلى دليل يفيد الظن بالحكم، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به، فيكون إفتاؤه من قبيل القول على الله بغير علم، ويزاح هذا الخاطر بأنه قد انضم إلى ذلك الدليل الظنى أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعاً به، وهو أن كل مجتهد بحق يكون حكم الشرع فى حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذى أداه إليه اجتهاده، وبمراعاة هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له بالرسوخ فى العلم قائلا على الله ما لا يعلم ".

هذا، ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم فى التحذير من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى -:

{ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ }

وقوله - تعالى -:

{ ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً }

وقوله - تعالى -:

{ يَابَنِيۤ ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ }

وقد أرشدنا النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن الإكثار من ذكر الله خير معين للإنسان للتغلب على وساوس الشيطان فقال فى حديثه الطويل الذى رواه الترمذى والنسائى وابن حبان عن الحارث الأشعرى: " وآمركم بذكر الله كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره، فأتى حصنا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله.

وبعد أن نهى - سبحانه - الناس عن إتباع خطوات الشيطان، وبين لهم مظاهر عداوته لهم، أردف ذلك ببيان حال طائفة من الناس لم يستمعوا لهذا النصح، بل اتبعوا خطوات الشيطان فقلدوا آباءهم فى الشرك والجهالة فقال - تعالى -:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴿١٧٠﴾

أى: وإذا قيل لأولئك الذين اقتفوا خطوات الشيطان، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان، إذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله من قرآن، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء.

فالضمير فى قوله - تعالى -: { لَهُمُ } يعود على طائفة ممن شملهم الخطاب بقوله - تعالى - فى الآية السابقة:{ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فى ٱلأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ }

وهم الذين لم يستجيبوا لنداء الله بل ساروا فى ركب الشيطان، واقتفوا آثاره، { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ }. القائل لهم ذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون.

والمراد به أنزل الله: القرآن الكريم، وما أوحاه الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم من هدايات. وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم صاروا ليسوا أهلا للخطاب، بل ينبغى أن يصرف عنهم إلى من يعقله.

و { بَلْ } فى قوله - تعالى -: { بَلْ نَتَّبِعُ } للإضراب الإبطالى، أى: أضربوا عن قول الرسول لهم { ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ } إضراب إعراض بدون حجة، إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم من أمور الشرك والضلال.

وقوله - تعالى -: { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد فى الدين على مجرد تقليد الآباء.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، والواو للحال، والمعنى: أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم والحال أن آباءهم لا يعقلون شيئاً من أمور الدين الصحيح، ولا يهتدون إلى طريق الصواب.

قال الآلوسى: وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم فى شىء وقد قال - سبحانه -{ فَٱسْأَلُواْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ }

وبعد أن بين - سبحانه - فساد ما عليه أولئك المشركون المقلدون من غير نظر ولا استدلال، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة فى قبيح شأنهم والزراية عليهم فقال - تعالى -:

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

{ وَمَثَلُ } الصفة والشأن، وأصل المثل بمعنى المثل: النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة، إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة.

و { يَنْعِقُ } من النعيق وهو الصياح.

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أى أن ثانيهما تأكيد للأول، وقيل: الدعاء للقريب والنداء للبعيد.

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات.

وأولهما: وهو الدعاء معناه: الصياح بالبهائم لتأتى.

وثانيهما: وهو النداء معناه: الصياح بها لتذهب.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: وللعلماء من أهل التأويل فى هذه الآية طريقان:

- أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمار فى الآية.
- والثانى: إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

أما الذين أضمروا فذكروا وجوها:

<u>الأول:</u> كأنه قال: ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينعق، فصار الناعق الذى هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق. وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم وألفاظه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

<u>الثانى:</u> ومثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم. فشبه الأصنام - فى أنها لا تفهم - بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلا، فمن دعا حجراً أولى بالذم.

والفرق بين هذا القول والذى قبله أن ها هنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره، ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ها هنا.

ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرا لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد ".

وقوله - تعالى -: { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ } زيادة فى تبكيتهم وتقريعهم، أى: صم عن استماع دعوة الحق. بكم عن إجابة الداعى إليها، عمى عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر.

وقوله: { فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } وارد مورد النتيجة بعد البرهان، بجانب كونه توبيخاً لهم، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر، وأهم وسيلة للثقافة وهى استطلاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عله الاكتسابى، فأصبح لا يفقه شيئاً؛ لأن العقل الذى يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث.

وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أنداداً، ولحال الكافرين المقلدين لآبائهم فى الضلال بدون تدبر أو تعقل، بعد كل ذلك وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين بينت لهم فيه - وفيما سيأتى بعده من آيات - كثيراً من التشريعات والآداب والأحكام التى هم فى حاجة إليها فقال - تعالى -:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّـهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

الطيبات من الأطعمة: المستلذات، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل الله له. وما رزقناكم: ما أوصلناه إليكم من الرزق، - وهو ما ينتفع به.

أى: يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من ألوان الطيبات التى أحللناها لكم، ولا تتعرضوا لما حرمناه عليكم.

وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة، لأنهم أحق بالفهم، وأجدر بالعلم وأحرى بالاهتداء، وأولى بالتكريم والتشريف.

ومفعول { كُلُواْ } محذوف، أى: كلوا رزقكم حال كونه بعض طيبات ما رزقناكم.

ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التى أباحها لهم فقال: { وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة { كُلُواْ }.

والشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجدها، ووضعها فى الموضع الذى أمر به.

أى: تمتعوا بنعم الله، واعترفوا له بها على وجه التعظيم، بأن تمتثلوا ما أمر به، وتجتنبوا ما نهى عنه، إن كنتم تخصونه بالعبادة حقاً، وتفردونه بالطاعة صدقاً.

قال الآلوسى: وجملة { إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } بمنزلة التعليل لطلب الشكر، كأنه قيل: " واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة، وتخصيصكم إياه بالعبادة، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه، وهى لا تتم إلا بالشكر، لأنه من أجل العبادات ".

وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير: إن كنتم إياه تعبدون فكلوا واشكروا لله.

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يشكروه فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى -:{ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }

وقال - تعالى -:{ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
<u>" الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر "</u>

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:
<u>" إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها ".</u>

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفاً بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقاً وأصنافاً، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب، وكبعض الحيوانات عند غيرهم وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى - تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك... ثم قال: وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطاً تعطى الجسد حقه والروح حقها، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جسمانيين محضاً كالأنعام، ولا روحانيين خلصا كالملائكة، وإنما جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن ".

وقوله - تعالى –

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّـهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ } بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا.

و { ٱلْمَيْتَةَ } فى عرف الشرع: ما مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروعه، فيدخل فيها: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما عدا عليها السبع، ويدخل فى حكم الميتة ما قطع من جسم الحيوان الحى للحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى واقد الليثى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة ".

قال الآلوسى: وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التى هى صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان - إشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد، للحديث الذى أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال " وللعرف أيضاً، فإنه إذا ما قال القائل: أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليهما نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافى وما مات من الجراد بغير سبب، واستدل بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافاً لمن أباحه ".

والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحى كثيراً كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله - تعالى -:-

{ قُل لاَّ أَجِدُ فى مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً... }

والدم المسفوح: هو الدم الجارى المهراق من البهيمة بعد ذبحها.

أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شىء فيه.

قال القرطبى: وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به البلوى. والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه... وقد روت عائشة - رضى الله عنها - قالت: كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره " لأن التحفظ من هذا إصر وفيه مشقة، والإصر والمشقة فى الدين موضوع.
وهذا أصل فى الشرع ".

وقد عرف عن بعض العرب فى الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من البهائم عند ذبحها، فيضعونه فى أمعائها ثم يشوونها بالنار ويأكلونها ويسمون ذلك بالفصيد.

وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده. وإنما خص لحمه بالذكر، لأنه الذى يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه. وبعض الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير فى الخرازة - أى: خياطة الجلود وغيرها -، وبعضهم كره ذلك.

وقوله: { وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ } معطوف على ما قبله من المحرمات. و { أُهِلَّ } من الإهلال، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج. وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا.

فالمراد بما أهل به لغير الله: ما ذبح للأصنام وغيرها، ومنه ما يذبحه المجوسى للنار. ومنه عند جمهور العلماء: ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر عليها اسم عزير أو عيسى، لأنها مما أهل به لغير الله.

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً، لعموم قوله - تعالى - فى سورة المائدة وهى من آخر سورة نزولا:{ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ }

أى ذبائحهم، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون.

وروى الحسن عن على - رضى الله عنه - أنه قال: إذا ذكر الكتابى اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل، فإن غاب عنك فكل، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

<u>وقد روى البخارى " عن عائشه - رضى الله عنها - قالت: إن قوماً قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوه. قالت: وكانوا حديثى عهد بكفر ".</u>

فكأن المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة، أى: لعلة ذاتية فيها، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعلة فيه، ولكن للتوجه به إلى غير الله. وهى علة روحية تنافى سلامة القلب، وطهارة الروح، ووحدة المتجه فما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملحق بالنجاسة المادية

والقذارة الحقيقية، وفى ذلك حض للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى -، وزجر لهم عن التقرب إلى أحد سواه.

وقوله - تعالى -: { فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاۤ إِثْمَ عَلَيْهِ } بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات.

و { ٱضْطُرَّ } من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء. يقال: اضطره إلى هذا الشىء. أى: أحوجه وألجأه إليه مأخوذ من الإضرار، وهو حمل الإنسان على أمر بكرهه، وقهره عليه بقوة يناله بدفعها الهلاك.

و { بَاغٍ } من البغاء وهو الطلب. تقول: بغيته بغاء وبغيا وبغية أى: طلبته.

و { عَادٍ } اسم فاعل بمعنى متعد، تقول. عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غير فهو عاد، ومنه قوله - تعالى - فى شأن قوم لوط{ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ }

و { غَيْرَ } منصوب على الحال من الضمير المستتر فى { ٱضْطُرَّ } وهى هنا بمعنى النفى ولذا عطف عليها لا.

والمعنى: فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات: حالة كونه غير باغ: أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساع فى فساد { وَلاَ عَادٍ } أى: وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة { فَلاۤ إِثْمَ عَلَيْهِ } أى: فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات.

وبهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام ويسره فى تشريعاته، التى أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال - تعالى -{ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }

وقال - تعالى -:{ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ }

وقوله: { إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } تذييل قصد به الامتنان. أى: إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجليلين، ومن كان كذلك كان من شأنه أن يعفو عن الخطايا، ويغفر الذنوب، ويشرع لعباده ما فيه يسر لا ما فيه عسر.

هذا، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضى أنه ليس هناك محرم من المطعومات سوى هذه الأربعة، لكنا نعلم فى الشرع أن هناك مطعومات أخرى قد حرم على المسلم تناولها كلحوم الحمر الأهلية، فعلى هذا تكون لفظة " إنما " متروكة الظاهر فى العمل - كما قال الإمام الرازى - أى: أن الحصر فيها غير مقصود

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنعام:
{ قُل لاَّ أَجِدُ فى مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتمون ما أمر الله بإظهاره وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى -:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

الكتم والكتمان: إخفاء الشيء قصداً مع تحقق الداعى إلى إظهاره.

وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - فى قوله تعالى -{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ }

عن المصير الأليم الذى توعد الله به أولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم هنا؛ لكى ينذرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرذيلة التى هى من أبشع الرذائل وأقبحها، ولكى يغرس فى قلوب الناس - وخصوصا العلماء - الشجاعة التى تجعلهم يجهرون بكملة الحق فى وجوه الطغاة لا يخافون لومة لائم، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحداً سواه، ويبينون للناس ما أمرهم الله ببيانه بطريقة سليمة أمينة خالية من التحريف الكاذب، والتأويل الباطل.

قال الإمام الرازى: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رؤساء اليهود وأحبارهم. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

ثم قال الإمام الرازى: والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب لكنها عامة فى حق كل من كتم شيئاً من باب الدين يجب إظهاره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ".

والمراد بالكتاب، التوراة، أو جنس الكتب السماوية التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم.

و { مِنَ } فى قوله: { مِنَ ٱلْكِتَابِ } بمعنى فى أى: يكتمون ما أنزل الله فى كتابه من صفة النبى صلى الله عليه وسلم ونعته ووقت بعثته.

وقيل للبيان، وهى حال من العائد على الموصول والتقدير: أنزل الله حال كونه من الكتاب والعامل فيه أنزل.

وقوله: { وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً } معطوف على يكتمون.

أى: يكتمون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ويأخذون من سفلتهم فى مقابل ذلك عرضاً قليلا من أعراض الدنيا.

والضمير فى قوله: { بِهِ } يعود إلى ما أنزل الله، أو إلى الكتمان الذى يدل عليه الفعل { يَكْتُمُونَ } أو إلى الكتاب.

ووصف هذا الثمن الذى يأخذونه فى مقابل كتمانهم بالقلة، لأن كل ما يؤخذ فى مقابلة إخفاء شىء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهباً.

وقوله - تعالى -: { أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ إِلاَّ ٱلنَّارَ } وما عطف عليه، بيان للعذاب المهين الذى أعدلهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره وبيعهم دينهم بدنياهم.

أى: أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار كما قال - تعالى - فى حق أكله مال اليتامى:{ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً }

وفى هذه الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة من أكلهم ذلك الثمن القليل.

المفضى بهم إلى النار، بحالة من يأكل النار نفسها. ووجه الشبه بين الحالتين: -
أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع الأمعاء وشدة الألم، ما يترب على أكل النار ذاتها، إلا أن العذاب الحاصل من أكل النار يقع عندما تمتلئ منها بطونهم، والعذاب الحاصل من أكل المال الحرام يقع عند لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار.

وجىء باسم الإشارة فى أول هذه الجملة لتمييز أولئك الكاتمين أكمل تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد، وللتنبيه على أن ما ذكر بعد اسم الإشارة من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات.

وخص - سبحانه - بالذكر الأكل فى بطونهم من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه من مال حرام، للإشعار بسقوط همتهم ودناءة نفوسهم حتى إنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات، نظير ملء بطونهم.

وقوله: { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ } أى: لا يكلمهم كلاما تطمئن به نفوسهم، وتنشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم كقوله - لهم:{ ٱخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ }

أو أن نفى تكليمه لهم كناية عن غضبه عليهم، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه ولا يكلمونه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث.

وقوله: { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } أى: ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة، من التزكية بمعنى التطهير. يقال: زكاة الله، أى: طهره وأصلحه.

وتستعمل التزكية بمعنى الثناء، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصفه بالأوصاف المحمودة وأثنى عليه. فيكون معنى { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } لا يثنى عليهم - سبحانه - ومن لا يثنى عليه الله فهو معذب.

فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير شىء قليل من حطام الدنيا، فقدوا رضا الله عنهم وثناءه عليهم وتطهيره لهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم، وشدة ألم العذاب الذى ينالهم فقال - تعالى - { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أى. موجع مؤلم.

قال الآلوسى: وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى، لأنه لما ذكر - سبحانه - اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعمهم الخبيثة الفانية، بدأ أولا فى الخبر بقوله: { مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ ٱلنَّارَ }. وابتنى على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلا، أنهم شهود زور وأحبار سوء، آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وألموه فقوبلوا بقوله - سبحانه -: { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من جهل وغباء وسوء عاقبة فقال:

أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

الاشتراء: استبدال السلعة بالثمن. والمعنى: أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم الكاتمون لما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا فى مقابلهما الكفر والضلال، وباعوا

ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا فى مقابل ذلك عذابه ونقمته، فما أخسرها من صفقة، وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا الفانية، فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم.

وقوله - تعالى -: { فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ } معناه: فما أدومهم على عمل المعاصى التى تؤدى بهم إلى النار حتى لكأنهم بإصرارهم على عملها يجلبون النار إليهم جلباً. ويقصدون إليها قصداً بدون مبالاة أو تفكر.

والمراد من التعجب فى هذه الآية وأشباهها، الإعلام بحالهم وأنه ينبغى أن يتعجب منها كل أحد، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملة التعجب من صبر أولئك الكفارعلى النار، والتعجب انفعال - يحدث فى النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه وهو غير جائز فى حقه - تعالى - لأنه لا يخفى عليه شىء،

ومن هنا قال العلماء: إن فعل التعجب فى كلام الله المراد منه التعجب، أى: جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجيب المؤمنين من جراءة أولئك الكاتمين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم فى النار، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبيه بهذا الأسلوب فى التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا ممن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادى فيما يوجب غضب ذلك السلطان.

قال الجمل ما ملخصه وما فى قوله { فَمَآ أَصْبَرَهُمْ } - وفى مثل هذا التركيب - فيها أوجه:

- أحدها: وهو قول سيبويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة وأن معناها التعجب فإذا قلت. ما أحسن زيداً، فمعناه: شىء صير زيداً حسنا.

- والثانى: وإليه ذهب الفراء: أنها استفهامية صحبها معنى التعجب، نحو:{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ }

ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم، هو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّـهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

أى: ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوراة مصحوبة ببيان الحق الذى من جملته التبشير ببعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فكتموا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل

إيثارا لمطامع دنيوية على هدى الله الذى هو أساس كل سعادة.

فاسم الإشارة { ذَٰلِكَ } يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار، وعدم تكليم الله إياهم، وعدم تزكيتهم.. الخ.

والباء فى قوله: { بِأَنَّ } للسببية، والمراد بالكتاب: التوراة.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكاتمين للحق بقوله: { وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فى ٱلْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }.

اختلفوا: خلف بعضهم بعضاً، وأصله من أختلاف الطريق، تقول اختلفوا فى الطريق. أى: جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة أو جهات أخرى. ثم استعمل فى الاختلاف فى المذاهب والاعتقاد.

والكتاب: التوراة، أو التوراة والإنجيل، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين، وقد أبعد فى التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتموا ما فى كتبهم من بشارات بالرسول صلى الله عليه وسلم واختلافهم فى الكتاب من مظاهره: إيمانهم ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه.

والشقاق: الخلاف، كأن كل واحد من المختلفين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر، وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق، يقال: قال فلان قولا بعيداً، أى بعيداً من الصواب.

والمعنى: ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الأشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله فى كتابه من الحق، وإن الذين اختلفوا فى شأن ما أنزله الله فى كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها - لفى بعد شديد عن الحق والصواب:

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الأليمة التى توعد الله بها كل من يكتم أمراً نهى الله عن كتمانه، لكى يقلع كل من يتأنى له الخطاب عن هذه الرذيلة وفاء للعهد الذى أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

تـــمـت بحمـد الله